

ڪامل ڪيلاني

پوليوس فيصو



يُونُوسَ قَيْصَرَ

يُونُوسَ قَيْصَرَ

تأليف
كامل كيلانى



رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٣٢١

تدمك: ٤ ١١٠ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

كلمات عربية للترجمة والنشر

جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١ + فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +

البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.kalimat.org>

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربية
للترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Kalimat Arabia.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧

٩

١٩

٢٩

٣٩

٤٥

مُقَدِّمَةٌ

الفصلُ الأوَّلُ

الفصلُ الثَّانِي

الفصلُ الثَّالِثُ

الفصلُ الرَّابِعُ

خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

مُقَدِّمَةٌ

أَيُّهَا الْفَارِيُّ الصَّغِيرُ:

هَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ قِصَصِ «شَكْسِير» الَّتِي وَعَدْتُكَ بِاقْتِبَاسِهَا (أَخَذِ خُلَاصَتَهَا) وَتَقْدِيمِهَا إِلَيْكَ.

وَقَدْ دَأَبْتُ عَلَى خُطَّتِي (سَرْتُ عَلَى طَرِيقَتِي) مَعَكَ فِي الْعِنَايَةِ بِاخْتِيَارِ أَحْسَنِ الْقِصَصِ، وَأَكْثَرِهَا رُوعًا وَجَمَالًا. كَمَا دَأَبْتُ عَلَى الرُّوِيَّةِ وَالتَّمَهُّلِ وَالتَّدْبِيرِ فِي صَوْغِهَا وَتَنْسِيقِهَا. وَكُلِّي ثِقَةً فِي أَنْ تَجْرِي مَعِيَ عَلَى سَجِيَّتِكَ (طَبِيعَتِكَ) فِي إِمْعَانِ الْفِكْرِ وَتَدْقِيقِ النَّظَرِ فِيمَا تَقْرَأُ، وَإِطَالَةِ الرُّوِيَّةِ فِي فَهْمِ مَا أَقْصُهُ عَلَيْكَ.

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ — كَسَابِقَتَيْهَا — تَشْرَحُ لَكَ مِنْ دَقَائِقِ الْحَيَاةِ، وَأَسْرَارِ النُّفُوسِ مَا أَنْتَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى تَعْرِفِهِ، لِتَسْتَنِيرَ لَكَ السَّبِيلُ؛ فَتَمْشِي عَلَى هُدًى.

وَلَنْ تَجِدَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُعْجَبَةِ إِلَّا مَا يَرُوعُكَ وَيَفْتِنُكَ؛ إِذْ تَتَمَثَّلُ لَكَ فِيهَا: عَاقِبَةُ الْحَسَدِ، وَمَغَبَّةُ الْحَقْدِ، وَآخِرَةُ الْعُدْرِ. وَسَتَرَى: كَيْفَ تَنْتَهِي هَذِهِ الْخِلَالُ بِالْوَبَالِ عَلَى أَصْحَابِهَا، وَتُنزِلُهُمْ — مِنْ أَسْمَى دَرَجَاتِ الْمُجْدِ — إِلَى أَحْطَى دَرَكَاتِ الْمَهَانَةِ وَالشَّقَاءِ، وَأَسْفَلَ مَنَازِلِ الْهُوَانِ وَالذُّلِّ.

سَتَرَى مُصَدِّقَ هَذَا (تَلْمُسُ الدَّلِيلَ عَلَى صِدْقِهِ)، وَتَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَصِرُ الْحَقُّ — آخِرَ الْأَمْرِ — وَيَخْفِقُ عِلْمُهُ (تَهْتَرُ رَأْيَتُهُ)، ثُمَّ يَلْقَى الْأَيْمُونَ مَا هُمْ أَهْلٌ لَهُ مِنْ الْعِقَابِ وَالتَّنْكِيلِ، جَزَاءً وَفَاقًا لِمَا اقْتَرَفُوهُ مِنْ إِيْثْمٍ، وَارْتَكَبُوهُ مِنْ عُذْوَانٍ.

يُولِيُوسَ قَيْصَرَ

وَهَآنَذَا أَتْرُكُ الْحَدِيثَ لـ «شِكْسِير»؛ فَهُوَ خَيْرٌ مَن يُحَدِّثُكَ أَطْيَبَ الْحَدِيثِ، وَأَقْدَرُ
مَن يَقْصُ عَلَيْكَ أَبْدَعَ الْقَصِصِ.

الفصل الأول

(١) فاتحة القصة

وَقَعَتْ حَوَادِثُ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِأَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، فِي شَهْرِ مَارِسَ.
أَعْنِي: أَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ وِلَادَتِكَ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الصَّغِيرُ — بِالْفِي عَامٍ إِلَّا قَلِيلًا. تَسْأَلُنِي: فِي
أَيِّ مَكَانٍ وَقَعَتْ تِلْكَ الْحَوَادِثُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي أَقْصَاهَا عَلَيْكَ؟
فَاعْلَمْ — عَلِمْتَ الْخَيْرَ — أَنَّهَا وَقَعَتْ فِي مَدِينَةِ «رُومَةَ» عَاصِمَةِ إِيْطَالِيَا، وَمَهْدِ حَضَارَةِ
الرُّومَانِ (المَوْضِعِ الَّذِي نَشَأْتُ فِيهِ).

(٢) بهجة العيدين

وَكَانَتْ مَدِينَةُ «رُومَةَ» — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — تَسْتَقْبِلُ عِيدَيْنِ، وَتَبْتَهِّجُ لِمُنَاسَبَتَيْنِ. أُوْلَاهُمَا: عِيدُ
عَامٍ، تَحْتَفِلُ فِيهِ الْبِلَادُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ كُلِّ عَامٍ، وَيَتَبَارَى فِيهِ السَّبَاقُونَ وَالْعِدَّاءُ وَنَ
(الْجَارُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ) وَمَنْ إِلَيْهِمْ. وَالثَّانِيَةُ: عِيدُ حَاصٍ، أَتَاحَتْهُ فُرْصَةٌ بِعَيْنِهَا، تِلْكَ هِيَ
أَنَّ «يُولْيُوسَ قَيْسَرَ» — بَطَلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ الْمُعْجَبَةِ، وَرَعِيمَ الرُّومَانِ الْأَوْحِدِ —
عَادَ إِلَى وَطَنِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مُنْتَصِرًا عَلَى أَعْدَائِهِ، بَعْدَ أَنْ حَارَبَهُمْ، وَشَتَّتَ جُمُوعَهُمْ، وَشَرَّدَ
جُيُوشَهُمْ كُلَّ تَشْرِيدٍ، وَنَكَّلَ بِهِمْ أَشَدَّ تَنْكِيلٍ، وَأَنْزَلَ بِهِمُ الْمَصَائِبَ وَالنَّكَبَاتِ الْفَادِحَةَ.

(٣) خُصُومٌ «قَيْصَرُ»

وَكَانَتْ جَمَهْرَةُ الْبِلَادِ، وَسَوَادُ الشَّعْبِ، يَسْتَقْبِلُونَ هَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ فَرِحِينَ مَسْرُورِينَ؛ فَرَعَوْا الْأَعْلَامَ، وَرَدَّيُوا الْمَدِينَةَ بِطَاقَاتِ الْأَزْهَارِ وَالرِّيَاحِينَ، وَانْتَشَرُوا فِي الطَّرِيقَاتِ؛ فَغَصَّتْ بِجُمُوعِهِمُ الْمَيَادِينُ — عَلَى رَحْبِهَا — وَامْتَلَأَتْ حَتَّى ضَاقَتْ بِوُقُودِ الْمُسْتَقْبِلِينَ الْمُبْتَهَجِينَ. وَلَمْ يَشُدَّ عَنْهُمْ — فِي هَذَا الْفَرَحِ الشَّامِلِ — إِلَّا فِتْنَةٌ قَلِيلُونَ مِنْ حَسَادِ «قَيْصَرِ» وَمَنَافِسِيهِ، إِذْ كَانُوا لَا يَطِيقُونَ أَنْ يَسْمَعُوا بِانْتِصَارِهِ، وَلَا تَقَرُّ نَفُوسُهُمُ الْوَضِيعَةَ (لَا تَطْمِئِنُّ وَلَا تَهْدَأُ) إِلَّا بِانْكِسَارِهِ وَانْدِحَارِهِ!

وَمَا عَرَفَ هُوَ لِأَنَّ الْحَسَادَ مَوْعِدَ قُدُومِ «قَيْصَرِ» الْمُنْتَصِرِ، حَتَّى اشْتَعَلَتْ بِالْحَقْدِ قُلُوبَهُمْ، وَأَضْطَرَمَّتْ بِالْغَيْظِ نَفُوسُهُمْ (الْتَهَبَتْ)، وَوَدُّوا لَوْ قَدَرُوا عَلَى أَنْ يُبَدِّلُوا بِهَذَا الصَّفْوِ كَدْرًا، وَيَحُولُوا هَذِهِ الْأَعْرَاسَ الْمَعْقُودَةَ (الْمُهَيَّأَةَ الْمَنْصُوبَةَ) إِلَى مَاتِمٍ وَمَنَاحَاتٍ.

(٤) الْحَاسِدَانِ

وَاشْتَدَّ الْحَقْدُ وَالْغَيْظُ بِرَجُلَيْنِ مِنْ خُصُومِ «قَيْصَرِ»، فَأَعْمِيَاهُمَا عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ، وَطَوَّحَا بِهِمَا فِي هَاوِيَةٍ مِنَ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ!

وَكَانَ اسْمُ أَوْلَاهِمَا: «فَلْفِيَّاسَ»، وَاسْمُ الْآخَرِ: «مَرْلَاسَ».

فَخَرَجَا يَعْتَرِضَانِ الْجُمُوعَ الْمُنْتَدِفَّةَ الْمُنْدَفِعَةَ مِنَ النَّاسِ، لِيَصْدَأَهُمْ عَنْ مَظَاهِرَاتِهِمْ، وَيَمْنَعَاهُمْ مِنْ لِقَائِهِمْ لِ «قَيْصَرِ».

فَصَاحَ أَوْلَاهُمَا فِي أَحَدِ الْجُمُوعِ: «عَلَامَ تَتَجَمَّعُونَ؟ وَلِمَاذَا تَمْرَحُونَ؟ وَلَايِي دَاعِيَةَ تَرَكْتُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَأَنْصَرَفْتُمْ إِلَى الْبَطَالَةِ وَاللَّهُوِ؟»

(٥) جَوَابُ النَّجَارِ

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ جُمُوعِ النَّاسِ قَائِدَانِ. فَالْتَفَتَ إِلَى أَحَدِهِمَا «مَرْلَاسَ» — أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ: «عَدُوِّي «قَيْصَرِ» — وَقَالَ لَهُ: «مَا صِنَاعَتُكَ، أَيُّهَا الرَّجُلُ؟»



فَقَالَ لَهُ: «أَنَا — يَا سَيِّدِي — نَجَارٌ.»
فَصَاحَ فِيهِ «مَرْلَاسُ»: «كَيْفَ هَجَرْتَ عَمَلَكَ؟ وَلِمَاذَا ارْتَدَيْتَ أَفْخَرَ تِيَابِكَ؟ أَلَا قُبْحًا لَكَ
وَتَعَسَا (شَقَاءٌ وَهَلَاكًا).»

(٦) جَوَارُ الإِسْكَافِ

ثُمَّ انْتَفَتَ «مَرْلَاسُ» إِلَى الْقَائِدِ الأَخَرَ، وَسَأَلَهُ مُغْضَبًا: «وَأَنْتَ: مَا شَأْنُكَ؟ وَأَيُّ حِرْفَةٍ تَحْتَرِفُ؟»
فَقَالَ لَهُ: «أَنَا إِسْكَافٌ، يَا سَيِّدِي ... أُرْقِعُ النُّعَالَ القَدِيمَةَ، وَأُصْلِحُهَا، كَمَا يُصْلِحُ
الطَّبِيبُ الأَجْسَامَ المَرِيضَةَ. فَأَنَا أَشْفِي النُّعَالَ مِنَ الهَلَاكِ، وَأُرُدُّ إِلَيْهَا الحَيَاةَ ثَانِيَةً ...!»
فَقَالَ لَهُ «فَلْفَيَّاسُ» — زَمِيلُ «مَرْلَاسُ» — مُغْتَاطًا: «وَمَا بِأَنَّكَ تُزْعِمُ عَلَى هَذَا الأَجْمَعِ
الحَاشِدِ (تَجْعَلُ نَفْسَكَ زَعِيمًا عَلَيْهِ)، وَتَطُوفُ بِهِ فِي الطَّرِيقَاتِ وَالْمِيَادِينِ؟»
فَقَالَ لَهُ الإِسْكَافُ مُجِيبًا: «لَآنَ فِي ذَلِكَ فَائِدَتَيْنِ: الأُولَى: أَنْ أُبْلِي نِعَالَ المْتَجَمِّعِينَ؛
فَيُضْطَرُّوا إِلَى إِصْلَاحِهَا عِنْدِي؛ فَأَكْسِبُ بِذَلِكَ مَالًا. وَالثَّانِيَةُ: أَنْ أَطْفِرَ بِرُؤْيَةِ «قَيْصَرَ»
المُنْتَصِرِ المَحْبُوبِ، وَأَمْلَأُ نَاطِرِي بِوَجْهِهِ المُشْرِقِ الوُضَاحِ ...»
فَصَاحَ فِيهِ «مَرْلَاسُ» حَانِقًا (غَاضِبًا): «وَأَيُّ انْتِصَارٍ أَحْرَزَهُ «قَيْصَرُ»؟ وَأَيُّ غُنْمٍ نَالَه؟
وَأَيُّ فَائِدَةٍ عَادَ بِهَا إِلَى بِلَادِهِ؟»

(٧) خِطَابُ «مَرَلَّاسِ»

ثُمَّ وَقَفَ يَخُطُّبُ الْجُمْهُورَ مُهْتَاجًا غَاضِبًا:

«الْوَيْلُ لَكُمْ، أَيُّهَا الْقَوْمُ! أَنْسَيْتُمْ حَفَاوَتَكُمْ وَاهْتِمَامَكُمْ — مِنْ قَبْلُ — بِخُصُومِ «قَيْصَرَ»؟ أَلَمْ تَهْتَفُوا — قَبْلَ الْيَوْمِ — لِقَائِكُمْ وَرَعِيمِكُمْ «بُمَبِي»؟ أَلَمْ تَمَلُّوا لَهُ الْجَوَّ بِصِيَاحِكُمْ فَرَحِينَ مُهَلِّلِينَ؟ أَلَمْ تَفْعَمْ قُلُوبَكُمْ غِبْطَةً وَسُرُورًا، بِانْتِصَارِهِ وَفَوْزِهِ عَلَى أَعْدَاءِ الْوَطَنِ؟ فَمَا بِالْكُمْ تَجْتَمِعُونَ — الْيَوْمَ — لِتَحْيُوا خَصْمَهُ؟ مَا بِالْكُمْ تَبْتَهَجُونَ بِانْتِصَارِ «قَيْصَرَ» عَلَيْهِ؟ أَلَا مَا كَانَ أَجْدَرَكُمْ بِالْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ، بَدَلًا مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ!

عُودُوا أَدْرَاكَكُمْ (ارْجِعُوا مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُمْ)، وَاسْتَغْفِرُوا لِدُنُوبِكُمْ، وَانْهَبُوا — سِرَاعًا — إِلَى ضِفَّةِ نَهْرِ «التَّيْبِرِ»، فَادْرِفُوا فِي مِيَاهِهِ عَبْرَاتِكُمْ، وَأَسِيلُوا دُمُوعَكُمْ، ثُمَّ ارْجِعُوا وَاجْمَعُوا أَصْحَابَكُمْ، وَأَقِيمُوا الْمُنَاحَاتِ مَكَانَ الْأَعْرَاسِ!»

(٨) عِقَابُ الْحَاسِدِينَ

وَلَمْ يَكْتَفِ «مَرَلَّاسُ» وَصَاحِبُهُ بِتَشْتِيتِ هَذَا الْجَمْعِ، بَلْ أَمْعَنَا فِي الْكَيْدِ، وَرَاحَا يَرْفَعَانِ الْأَزْهَارَ وَالرِّيَّاحِينَ مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَيَجْرِدَانِ التَّمَائِيلَ وَالنُّصَبَ (الْأَعْلَامَ الْمُنْصُوبَةَ) الْمُحَلَّلَةَ بِهَا؛ حَتَّى لَا يَرَى الْقَيْصَرُ — فِي طَرِيقِهِ — شَيْئًا مِنْ مَظَاهِرِ التَّكْرِيمِ لَهُ، وَالْحَفَاوَةَ بِهِ. وَقَدْ بَدَلَا جُهْدَيْهِمَا فِي تَحْقِيقِ فِكْرَتَيْهِمَا الْأَيْمَةِ؛ وَلَكِنَّهُمَا عَجَزَا جَمِيعًا عَنْ صَدِّ الْجُمُوعِ الْمُنْدَفِقَةِ الْأُخْرَى. وَلَقِيَا عِقَابَ تِلْكَ الْجُرْأَةِ الْحَرْقَاءِ (الْحَمَقَاءِ)، فَكَلَّلَ بِهِمَا أَنْصَارُ «قَيْصَرَ» وَجَرَدُوهُمَا مِمَّا أَحْرَزَاهُ مِنَ النِّيَابَةِ (الْعُضُويَّةِ فِي الْبُرْلَمَانِ) وَالْقَابِ الشَّرْفِ.

(٩) نِدَاءُ الْعُرَافِ

وَجَاءَ «قَيْصَرُ»، فَلَقِيَ مِنْ حَفَاوَةِ الْأَهْلِينَ وَابْتِهَاجِ الشَّعْبِ، مَا يَجْدُرُ بِأَمثَالِهِ مِنْ كِبَارِ الْغُرَاةِ وَالْفَاتِحِينَ.

وَذَهَبَ «قَيْصَرُ» مُيَمِّمًا حَلْبَةَ السَّبَاقِ (قَاصِدًا مِيدَانَهُ)، وَحَوْلَهُ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِهِ
(جَمَاعَةٌ مِنْ حَاشِيَتِهِ). وَصَدَحَتِ الْمَوْسِيقَى، وَفَاضَ الْفَرْحُ وَالِإِتْبَهَاجُ عَلَى قُلُوبِ الْحَاضِرِينَ
جَمِيعًا.

وَرَنَّ — فِي أَجَوَازِ الْفَضَاءِ (نَوَاحِيهِ) — صَوْتُ عَالٍ يُنَادِي الْقَيْصَرَ. فَقَالَ «قَيْصَرُ»:
«مَنْ ذَا يُنَادِينِي؟»

فَسَادَ صَمْتُ عَمِيقٌ، وَكَفَّتِ الْمَوْسِيقَى، وَاشْرَأَبَتِ الْأَعْنَاقُ (تَطَاوَلَتْ)، وَأَرْهَفَتِ الْأَذَانُ.
وَإِذَا بِصَوْتِ الْمُنَجِّمِ يَدُوي فِي الْفَضَاءِ، مَرَّةً أُخْرَى (وَالْمُنَجِّمُ هُوَ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ
الْمُسْتَقْبَلِ، وَيَزْعُمُ أَنَّ النُّجُومَ تُرْشِدُهُ إِلَى ذَلِكَ). وَإِذَا الْمُنَجِّمُ يَقُولُ: «حَذَارِ — أَيُّهَا الْقَيْصَرُ
— مِنْ مُنْتَصَفِ مَارِسْ!»

فَسَأَلَ «قَيْصَرُ» مَنْ حَوْلَهُ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ. فَقَالَ لَهُ صَدِيقُهُ «بُرُوتْسُ»: «إِنَّهُ عَرَّافٌ
(مُخْبِرٌ عَنِ الْغَيْبِ)، يُحَدِّثُكَ مُنْتَصَفَ هَذَا الشَّهْرِ!» فَاسْتَدْعَاهُ «قَيْصَرُ» إِلَيْهِ، وَسَأَلَهُ عَمَّا
يَقُولُ؛ فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْعَرَّافُ قَوْلَهُ: «حَذَارِ مُنْتَصَفِ مَارِسْ!»

فَهَزَيْتَ بِهِ «قَيْصَرُ»، وَقَالَ لَهُ سَاحِرًا: «مَا أَرَاكَ إِلَّا حَالِمًا قَدْ تَمَلَّكَ الْوَهْمُ، وَاسْتَوَى
عَلَيْكَ الْحَبَالُ...»
ثُمَّ ذَهَبَ «قَيْصَرُ» وَشَبِعْتَهُ، لِيَشْهَدُوا حَلْبَةَ السَّبَاقِ.

(١٠) جِوَارُ الصِّدِيقَيْنِ

وَبَقِيَ «كَسْيَاسُ» وَ«بُرُوتْسُ» فِي مَكَانِهِمَا. فَقَالَ أَوْلُهُمَا لِصَاحِبِهِ، وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: «أَرَاكَ بَاقِيًا
حَيْثُ أَنْتَ، فَهَلِ اعْتَرَمْتَ إِلَّا تَحَضَّرَ حَفْلَ السَّبَاقِ الْمُقَدَّسِ فِي هَذَا الْيَوْمِ؟»
فَقَالَ لَهُ «بُرُوتْسُ»: «إِنِّي لَا أَنْشِطُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأَلَاعِيبِ الْفَارِغَةِ، وَلَا أَحْسُ رَغْبَةً فِي
حُضُورِهَا.»

فَقَالَ لَهُ «كَسْيَاسُ»: «حَسَنًا تَفْعَلُ، أَيُّهَا الصِّدِيقُ الْحَمِيمُ (النَّقِويُّ الصِّدَاقَةُ). وَمَا أَرَاكَ
إِلَّا رَاشِدًا فِيمَا تَقُولُ. وَلَكِنْ أَتَأْتُنِي لِي فِي مُجَاهَرَتِكَ (إِخْبَارِكَ صَرَاحَةً) بِمَا يَجُولُ فِي نَفْسِي
(يَدُورُ بِخَاطِرِي) مِنَ الْعَتَبِ عَلَيْكَ، أَيُّهَا الصِّدِيقُ؟»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتْسُ»: «جَاهِرْنِي بِمَا تَشَاءُ؛ فَلَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَدِيثِكَ.» فَقَالَ
«كَسْيَاسُ»: «أَحَقُّ مَا تَقُولُ، أَيُّهَا الصِّدِيقُ؟ لَقَدْ أُدْخِلَ فِي رُوعِي (وَقَعَ فِي قَلْبِي) أَنَّكَ

قَدْ أَصْبَحْتَ — فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ — مُتَنَكِّرًا لِي ... وَقَدْ حَالَ وَدَادَكَ (تَغَيَّرَ)، وَاغْبَرَ صَفَاؤُكَ (تَكَدَّرَ)؛ فَأَصْبَحْتَ عَابِسَ الْوَجْهِ، قَاسِي النَّظَرَاتِ، جَافَ الْأَلْفَاطِ،
فَقَالَ لَهُ «بُرُوتْسُ»: «مَا أَرَاكَ إِلَّا وَاهِمًا فِيمَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ أَحْرَانِي اللَّدِينَةَ لَا تَدْعُ لِي مَجَالًا لِلإِبْتِسَامِ. وَلَكِنَّ تَقْتِي بِإِخْوَانِي، وَوَفَائِي لَهُمْ، لَمْ يَتَغَيَّرَا قَطُّ عَلَى كُلِّ حَالٍ.»

(١١) سُكُوى «كَسْيَاسُ»

فَقَالَ لَهُ «كَسْيَاسُ»: «لَقَدْ ابْتَهَجْتَ نَفْسِي لِمَا تَقُولُ. وَلَكِنَّ الْأَمَّا أُرِيدُ أَنْ أَبُتِّكَ إِيَّاهَا، وَأُطْلِعَكَ عَلَيْهَا: إِنَّ الْمَظَالِمَ قَدْ أَفَعَمَتْ قُلُوبَنَا أَسَى وَحُزْنًا. وَلَقَدْ أَجْمَعَ سَرَاةَ «رُومَةَ» (كُتِبَتْهَا وَأَعْيَانُهَا) عَلَى أَنَّكَ وَحْدَكَ زَعِمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَنَاطُ رَجَائِهَا، وَمَوْضِعُ أَمَلِهَا. كَمَا أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّكَ — لَوْ عَرَفْتَ حَقِيقَةَ نَفْسِكَ — قَادِرٌ بِمُفْرِدِكَ عَلَى تَفْرِيجِ كُرْبَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَشْفِ مَا تَعَانِيهِ مِنْ ضَائِقَةٍ وَحَيْفٍ (ظَلْمٍ وَإِرْهَاقٍ)، وَتَكْلِيفٍ بِمَا لَا يُطَاقُ.» فَقَالَ لَهُ «بُرُوتْسُ» وَاجِمًا: «إِنَّكَ لَتُكْبِرُ مِنْ أَمْرِي مَا صَغُرَ، وَتُعْظِمُ مِنْ شَأْنِي مَا حَقَرَ. وَمَا أَرَاكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْحَمِيمُ — إِلَّا مُورِدِي مَوَارِدِ الْهَلَاكِ (لَا أَظُنُّكَ إِلَّا ذَاهِبًا بِي مَذَاهِبِ الْمَوْتِ).»
فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أُجْدِرْنِي أَنْ تُخَلِدَ (تَرْكَنَ) إِلَيَّ بِثِقَتِكَ. فَلَسْتُ إِلَّا مَرَاةَ نَفْسِكَ. وَمَا أَنَا بِكَادِيكَ الْقَوْلُ؛ فَأَنْتَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِصِدْقِي وَإِيثَارِي (اخْتِيَارِي) الْحَدِّ، وَبُعْدِي عَنِ الرِّيَاءِ وَالنَّفَاقِ وَالتَّمَلُّقِ. فَإِذَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّكَ مَنَاطُ رَجَاءِ أُمَّتِكَ، فَلَسْتُ فِي هَذَا إِلَّا مُقَرَّرًا الْحَقِيقَةَ الْخَالِصَةَ، الَّتِي لَا يَشُوبُهَا أَقْلٌ رَيْبٍ (لَا يَخْتَلِطُ بِهَا أَيُّ شَكٍّ).»

فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «إِنِّي أَبْذُلُ آخَرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِي فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ. وَمَتَى دَعَانِي دَاعِي الْوَاجِبِ لَبَيْتُهُ مُسْرِعًا فَرِحًا، وَتَسَاوَى فِي نَظَرِي الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ.»

(١٢) حِفْدُ «كَسْيَاسُ»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّي مَا شَكَّكَتُ — لِحُظَّةٍ وَاحِدَةً — فِي صِدْقِ عَزِيمَتِكَ، وَكَرَمِ نَفْسِكَ، وَإِجْلَالِكَ لِوَطْنِكَ. وَلَقَدْ حَفَرْتَنِي تِلْكَ الْخِلَالُ الْكَرِيمَةُ (دَفَعْتَنِي تِلْكَ الْأَخْلَاقُ النَّبِيلَةُ) الَّتِي عَرَفْتُهَا فَيْكَ، إِلَى مُجَاهَرَّتِكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ: «لَقَدْ وُلِدْنَا — يَا أَحْيِي — أَحْرَارًا كَمَا وُلِدَ «قَيْصَرُ»، وَلَنَا مِثْلُ مَوَاهِبِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَرَايَاهُ، إِنْ لَمْ نَرْجَحْهُ وَنَزِدْ عَلَيْهِ.»

وَلَقَدْ أَنْقَذْتُهُ — ذَاتَ مَرَّةٍ — مِنَ الْعَرَقِ، بِقُوَّةِ سَاعِدِي، وَكَأَدَ يَهْلِكُ لَوْلَا مُسَاعَدَتِي. وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ وَصَلَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالرَّعَامَةِ، وَبَلَغَ أَعْلَى مَكَانٍ فِيهِمَا، وَأَصْبَحَ الشَّعْبُ يُقَدِّسُهُ، وَأَصْبَحْتُ أَنَا — بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ — عَبْدًا ذَلِيلًا، أَنْحَنِي أَمَامَهُ، وَلَا أَجْرُؤُ عَلَى مُخَالَفَةِ إِشَارَتِهِ؟ ...

لَقَدْ شَهِدْتُ هَذَا الرَّجُلَ يَشْكُو آلامَ الْحُمَى فِي «إِسْبَانِيَا»، وَرَأَيْتُهُ يَتَأَوَّهُ مِنْ آلامِ الْمَرَضِ كَمَا يَتَأَوَّهُ الْأَطْفَالُ، وَيَبْنُ كَمَا يَبْنُ الْعَجْزَةُ. وَهَأَنْذَا أَرَى ضَعْفَهُ يَتَحَوَّلُ إِلَى قُوَّةٍ، وَعَجْزَهُ يَصِيرُ إِلَى قُدْرَةٍ، وَأَرَاهُ يَبْطِشُ بِالْأَقْوِيَاءِ، وَيَفْتِكُ بِالْقَادَةِ، وَيُطِيحُ بِالْأَبْطَالِ وَالرُّعَمَاءِ (يُفْنِيهِمْ وَيُهْلِكُهُمْ). وَمَا أَرَانَا إِلَّا جَدِيدَيْنِ بِالْمَهَانَةِ وَالِاحْتِقَارِ، مَا دُمْنَا نَتْرَكُ لَهُ الْحَبْلَ عَلَى الْغَارِبِ، وَنَدْعُهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَلَا نَقْفُهُ عِنْدَ حَدِّهِ. وَمَا أَدْرِي — وَاللَّهِ — كَيْفَ أُتِيحَ لَهُ كُلُّ ذَلِكَ التَّوْفِيقِ؟ وَأَيُّ رَنْبِنٍ فِي اسْمِهِ قَدْ خَلَبَ أَلْبَابَ الشَّعْبِ (سَحَرَهَا)، وَفَتَنَ عُقُولَ الْجُمْهُورِ؟ أَكْتُبُ اسْمَكَ وَأَسْمَهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ: «بُرُوتَسْ» وَ«قَيْصَرُ»، وَأَنْطِقُ بِهِمَا جَمِيعًا، وَوَارِنَ بَيْنَ أَحْرَفِهِمَا، فَهَلْ تَرَى أَحَدَهُمَا يَقِلُّ عَنِ الْآخَرِ عُذُوبَةً فِي اللَّفْظِ، وَرَنْبِنًا فِي الْأُذُنِ؟
وَمَا زَالَ «كَسْيَاسُ» مُتَقَنَّناً فِي ضُرُوبِ الْكَيْدِ لِقَيْصَرَ، مُتَمَدِّحًا بِخِلَالِ «بُرُوتَسْ» وَمَزَايَاهُ، حَتَّى هَاجَهُ وَأَوْغَرَ صَدْرَهُ (أَشْعَلَهُ غَيْظًا) عَلَى صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ «قَيْصَرَ»، وَحَفَزَهُ إِلَى الْفَتْكِ بِهِ، وَالِانْتِقَامِ مِنْهُ.

(١٣) عَوْدَةُ «قَيْصَرَ»

وَلَمَّا عَادَ «قَيْصَرُ»، لَمَحَ «كَسْيَاسُ» وَهُوَ يَحَادِثُ «بُرُوتَسْ»: فَهَمَسَ «قَيْصَرُ» فِي أُذُنِ رَفِيقِهِ الْوَفِيِّ «أَنْطُنْيُوسَ»: «مَا أَعْجَبَ هَذَا الرَّجُلَ الْخَطِيرِ، وَمَا أَشَدَّ دَهَاءَهُ، وَأَعْظَمَ مَكْرَهُ، وَمَا أَقْبَحَ نَظْرَاتِهِ، وَأَكْثَرَ هَوَاجِسِهِ (خَوَاطِرَ نَفْسِهِ)!»
فَقَالَ لَهُ «أَنْطُنْيُوسُ»: «لَا عَلَيْكَ، وَلَا يَسُوكَ هَذَا، فَهَوَ — يَا سَيِّدِي — طَيِّبُ الْقَلْبِ، كَرِيمُ الْأَصْلِ».

فَقَالَ «قَيْصَرُ»: «إِنَّ «قَيْصَرَ» لَا يَخْشَى كَائِنًا كَانَ؛ وَلَوْ أَنَّ «قَيْصَرَ» يَخْشَى أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، لَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ وَحْدَهُ مُصَدَّرَ حَدْرِهِ، وَمَمْبَعَثَ خَوْفِهِ. أَلَا تَرَاهُ شَاحِبَ الْوَجْهِ، مَهْزُولَ الْجِسْمِ، كَثِيرَ الْإِطْرَاقِ، دَائِمَ التَّفَكُّيرِ، يَكَادُ لَا يَبْتَسِمُ؟ شَدَّ مَا تَدَهَشَنِي غَرَابَةُ أَطْوَارِهِ (أَحْوَالِهِ)، وَعُمُقُ نَظْرَاتِهِ! وَمَا أَظُنُّ «كَسْيَاسَ» هَذَا يَرْتَاحُ لَهُ بَالًا، وَيَهْدَأُ لَهُ خَاطِرًا، أَوْ يَطْفِرَ

بِرُتْبَةِ الزَّعَامَةِ، وَيَنَالُ غَايَةَ الْمَجْدِ. وَمَا أَرَاهُ يَطَّلُ لَيْلَهُ إِلَّا مُورِّقًا (سَاهِرًا مَهْمُومًا)؛ لِأَنَّ فِي رُومَةَ رَجُلًا أَرْفَعُ مِنْهُ مَنْصِبًا، وَأَعْلَى مَكَانَةً، وَأَعْظَمَ جَاهًا.»

(١٤) حَدِيثُ «كَسْكَا»

ثُمَّ خَرَجَ «قَيْصَرُ» وَحَاشِيَتُهُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا «كَسْكَا». وَكَانَ «كَسْيَاسُ» قَدْ جَذَبَ فَضْلَ رِدَائِهِ (طَرَفَ ثَوْبِهِ)، لِيَحْجِرَهُ مَعَهُ قَلِيلًا، ثُمَّ سَأَلَهُ عَمَّا حَدَثَ فِي حَفْلَةِ السَّبَاقِ. وَكَانَ «كَسْكَا» يَمُقَّتُ «قَيْصَرَ» أَشَدَّ الْمُقَّتِ، وَيُبْغِضُهُ أَشَدَّ الْبُغْضِ؛ فَرَاخَ يَقْضُ عَلَى «كَسْيَاسِ» وَ«بُرُوتَسِ» — بَعَيْنَ الْحَاقِدِ الْمَغِيظِ الْمُحْنَقِ — مَا رَأَاهُ فِي تِلْكَ الْحَفْلَةِ، وَيَقُولُ لَهُمَا: «إِنَّهَا كَانَتْ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِقِصَّةِ تَمَثِيلِيَّةٍ سَخِيفَةٍ. فَقَدْ عَرَضَ «أَنْطُونْيُوسُ» النَّاجَ عَلَى صَدِيقِهِ «قَيْصَرَ» — عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّظَارَةِ (الْمُشَاهِدِينَ) — فَرَفَضَهُ «قَيْصَرُ» مُتَطَاهِرًا بِالرُّهْدِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ. وَقَدْ خُدِعَ الْحَاضِرُونَ، فَصَفَّقُوا لِذَلِكَ التَّمَثِيلِ، وَقَذَفَ الْعَامَّةُ بِقَلَانِسِهِمْ (أَعْطِيَةَ رُءُوسِهِمْ)، وَتَعَالَتْ صِيحَاتُهُمْ سُورًا.»

ثُمَّ خَرَجَ «كَسْكَا»، بَعْدَ أَنْ لَعَنَ «قَيْصَرَ»، وَحَقَّرَ مِنْ أَمْرِهِ مَا شَاءَ لَهُ حِقْدُهُ. وَكَانَ «كَسْيَاسُ» يُحِبُّ قَوْلَهُ، حَتَّى امْتَلَأَتْ نَفْسُ «بُرُوتَسِ» حِقْدًا عَلَى صَدِيقِهِ «قَيْصَرَ»، وَكَرَاهِيَةً لَهُ. وَخَرَجَ «بُرُوتَسُ» عَلَى أَنْ يَلْتَقِيَ «كَسْيَاسَ» فِي دَارِهِ، فِي فَجْرِ الْغَدِ.

(١٥) لَيْلَةُ هَائِلَةٍ

وَقَدِ النَّقِيُّ «شِشِيرُونُ» صَدِيقَهُ «كَسْكَا»، فَرَأَاهُ يَرْعُدُ وَيَزْمَجِرُ وَيَهِيحُ غَاضِبًا، وَقَدْ شَهَرَ فِي يَدِهِ حُسَامَهُ (سَلَّ سَيْفَهُ)؛ فَسَأَلَهُ «شِشِيرُونُ»: «أَيُّ خَطْبٍ أَفْرَعَكَ؟ وَأَيُّ أَمْرٍ حَوَّقَكَ؟»

فَقَالَ لَهُ «كَسْكَا»: «لَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْمُفْرَعَاتِ الْمَاضِيَةِ وَالْأَحْدَاثِ وَالشُّؤْنِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ، وَشَهِدْتُ هِيَاجَ الْبَحْرِ، وَاصْطِخَابَ الْأَمْوَاجِ (اضْطِرَابَهَا)، وَتَوَرَّةَ الْعَوَاصِفِ الْهُوجِ (الرِّيَاحِ الَّتِي تَهُبُّ يَمِينًا وَشِمَالًا)، وَغُنْفَ الزَّوَابِعِ الَّتِي تَقْتَلِعُ الدَّوْحَ (الْأَشْجَارَ الضَّخْمَةَ)، وَكُنْتَنِي لَمْ أَر — فِي كُلِّ مَا رَأَيْتُ مِنَ الْمُرُوعَاتِ — بَعْضَ مَا رَأَيْتُهُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْهَائِلَةِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَدُورَ بِحَدِيدِي أَنْ الْعَوَاصِفَ تُمْطِرُ شَرْرًا، وَأَنَّ السَّمَاءَ تَقْدِفُ سَاكِنِي الْأَرْضِ نَارًا وَلَهَبًا! لَقَدْ هَوَّتِ الصَّوَاعِقُ عَلَى بَعْضِ الْأَهْلِينَ فَأَحْرَقَتْهُمْ، وَرَأَيْتُ فِي طَرِيقِي عَبْدًا تَعْمُرُ النَّارَ جِسْمَهُ، وَنِسَاءً مَدْعُورَاتٍ شَاحِبَاتٍ (مُتَغَيِّرَاتِ الْوُجُوهِ) يَعْتَسِفْنَ الطَّرْفَاتِ (يَتَخَبَّطْنَ

الفصل الأول

فِي سَيْرِهِنَّ عَلَى غَيْرِ هُدًى)، وَقَدْ مَلَأَ الدُّعْرُ قُلُوبَهُنَّ. وَأَبْصَرْتُ أَسَدًا شَارِدًا فِي الطَّرِيقِ، وَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيَّ مُحَدِّقًا، وَلَمْ يَمْسِنِي بِأَدَى. وَقَدْ سَمِعْنَا الْبُومَةَ — ظَهَرَ أَمْسٍ — تَتَعَبُ وَتَنْذِرُنَا بِالْوَيْلِ، فَعَجِبْنَا: كَيْفَ ظَهَرَتْ نَهَارًا، وَلَمْ يَكُنْ لَنَا بِذَلِكَ عَهْدٌ؟
فَقَالَ لَهُ «شَشِيرُونَ»: «مَا أَجْدَرَنِي بِالْعُودَةِ إِلَى دَارِي، فَإِنَّ الطَّرِيقَ مَخُوفَةٌ لَا تُشَجِّعُ عَلَى الْبَقَاءِ فِيهَا.»



وَمَا تَرَكَهُ «شَشِيرُونَ»، حَتَّى جَاءَ «كَسْيَاسُ»؛ فَحَيًّا صَدِيقَهُ «كَسْكَا»، وَرَأَى مَا يُسَاوِرُهُ مِنَ الدُّعْرِ وَالْحَوْفِ؛ فَقَالَ لَهُ: «لَيْسَ أَحَبُّ إِلَيَّ نَفْسِي مِنْ هَذِهِ الْعَوَاصِفِ الْمُتَنَهِّبَةِ التَّائِرَةِ؛ فَإِنَّهَا تُوَقِّظُ الْهَمَمَ، وَتَنْذِرُ بِأُمُورِ جِسَامٍ (عَظِيمَةٍ). وَلَسْتُ أَرَى — فِي هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الْهَائِلَةِ — إِلَّا إِنْذَارًا لِسَاكِنِي «رُومَةَ» بِطَرْحِ الْخُمُولِ وَالْكَسَلِ، وَشَحْدًا لِعَزَائِمِهِمُ الْخَائِرَةَ، وَتَقْوِيَةً لَهُمِهِمُ الضَّعِيفَةَ الْفَاتِرَةَ؛ لِيَنْتَقِمُوا مِنَ الظَّلْمَةِ الْمُسْتَبِدِّينَ، وَيَقْوُوا صُرُوحَ الْبَغْيِ (يُسْقَطُوا بَيُوتَ الظُّلْمِ)، وَيَقْضُوا عَلَى نَفُوزِ «قَيْصَرَ» الَّذِي أَدَلَّ زُعَمَاءَ الْبِلَادِ، وَجَعَلَهُمْ لَهُ عَبِيدًا وَحَدَمًا.»

وَكَانَ «كَسْيَاسُ» يَرَى - فِي ثَوْرَةِ الطَّبِيعَةِ وَطُغْيَانِهَا - مِثْلًا لِمَا يَجِيشُ فِي نَفْسِهِ مِنْ ثَوْرَةِ الْحَقْدِ. وَقَدْ أَسْرَّ إِلَى «كَسْكَا» بِمَا يَشْتَعِلُ فِي صَدْرِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْكَيْدِ لـ«قَيْصَرَ». وَمَا زَالَ بِهِ حَتَّى ضَمَّهُ إِلَى شِيعَتِهِ وَأَنْصَارِهِ.

وَبَاتَ «كَسْيَاسُ» لَيْلَهُ سَاهِدًا (مُورَقًا لَا يَنَامُ)، يُدَبِّرُ مَكِيدَتَهُ، وَيَحْكُمُ مُؤَامَرَتَهُ الَّتِي اعْتَزَمَ إِنْفَادَهَا فِي عَدَاةِ الْعَدِ (صُبْحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ)، مَعَ رِفَاقِهِ الْحَاقِدِينَ، وَشِيعَتِهِ الْغَادِرِينَ.

الفصل الثاني

(١) وسائوس «بروتس»

قَضَى «بُرُوتْسُ» لَيْلَةً هَائِلَةً، وَظَلَّ طَرِيحَ الْفِرَاشِ، تَتَنَّبُهُ الْوَسَاوِسُ، وَتَعَاوِدُهُ الْمَخَاوِفُ، وَلَمْ يَطْرُقِ الْكَرَى طَرْفَهُ (لَمْ يَزِرِ النَّوْمُ عَيْنَهُ). وَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ هَبَّ مِنْ فِرَاشِهِ مَدْعُورًا، وَأَيَّقَظَ خَادِمَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُوقِدَ الْمِصْبَاحَ، ثُمَّ أَطْرَقَ «بُرُوتْسُ» مُفَكِّرًا، وَقَلْبُهُ يَفِيضُ أَسَى وَحُزْنًا، لَهُوَلِ مَا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ.

وَكَانَ «بُرُوتْسُ» حَايِرًا صَدِيقٍ مُخْلِصٍ وَفِيٍّ لـ «قَيْصَرَ»، وَلَمْ يَكُنْ يَلْقَى مِنْهُ إِلَّا مَا يُحِبُّ. لِهَذَا وَقَفَ «بُرُوتْسُ» مُتَرَدِّدًا حَائِرًا، يُحَاوِلُ أَنْ يُسَوِّغَ جَرِيمَتَهُ (يَجْعَلُهَا مَقْبُولَةً) أَمَامَ نَفْسِهِ، بَعْدَ أَنْ اعْتَرَمَ تَحْقِيقَهَا. وَلَمْ يَكُنْ نَمَّةَ مَا يُبِيحُ اقْتِرَافَ هَذِهِ الْفِعْلَةِ الشَّنْعَاءِ. وَقَدْ أَعْوَزَتْهُ الْأَسْبَابُ، فَلَمْ يَجِدِ الْأَدَلَّةَ الَّتِي تُقْنِعُهُ بِصَوَابِ مَا سَمِعَهُ مِنْ «كَسْيَاس»، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَخْلُقَ تِلْكَ الْأَسْبَابَ خَلْقًا.

(٢) مَسْوَغَاتُ الْجَرِيمَةِ

فَقَالَ «بُرُوتْسُ» لِنَفْسِهِ: «إِنَّ الطَّمَعَ بِلَا شَكٍّ سَيَغْرِي «قَيْصَرَ» بِظُلْمِ الشَّعْبِ، وَالتَّكَبُّرِ عَلَى أَصْدِقَائِهِ. وَلَكِنَّ صَاحَّ مَا قَالَهُ «كَسْيَاسُ» لِيَكُونَ نِقَادًا «رُومَةَ» عَلَى أَيْدِينَا مِنْ عَسْفِ الْمُسْتَبِدِّينَ، وَجَوْرِ الظَّالِمِينَ، وَلَنَرْجِعَنَّ لِلنَّاسِ حُرِّيَّتَهُمُ الْمَسْلُوبَةَ. أَلَا إِنَّنِي لَا أُضْمِرُ حَقْدًا لـ «قَيْصَرَ»، وَمَا كُنْتُ لَهُ عَدُوًّا يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ، وَلَكِنَّ مَصْلَحَةَ بِلَادِي حَايِرٌ مِنْ صِدَاقَتِهِ، وَحُرِّيَّةِ

وَطَنِي أَنْتُمْ مِنْ إِرْضَاءِ «قَيْصَرٍ». لَقَدْ طَمَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى أَنْ يَتَوَجَّ عَلَى «رُومَةَ»؛ فَإِذَا تَمَّ لَهُ ذَلِكَ، مَكَّنَّا لَهُ مِنْ رِقَابِنَا، وَأَذَلْنَا لَهُ أَعْنَاقَنَا، وَحَنِينًا تَحْتَ قَدَمَيْهِ رُءُوسَنَا. إِنَّ «قَيْصَرَ» لَمْ يُسِئْ إِلَيْنَا، وَلَا إِلَى «رُومَةَ» قَطُّ، وَلَكِنَّهُ — إِذَا تَمَّ لَهُ مَأْرِبُهُ (مُرَادُهُ)، وَتَحَقَّقَتْ أَطْمَاعُهُ — لَنْ يَرْحَمَ كَاتِنًا كَانَ، وَلَنْ يَتَوَرَّعَ عَنِ الْبَطْشِ بِرُءُوسِ «رُومَةَ»، وَقَتْلِ أَعْيَانِهَا. إِنَّ بَيْضَةَ الْأَفْعَى لَا بَدَّ أَنْ تُفْرَخَ بَعْدَ حِينٍ، ثُمَّ تُصْبِحُ حَيَّةً حَبِيئَةً مُؤْذِيَةً تَفْتِكُ بِكُلِّ مَا تَلْقَاهُ فِي طَرِيقِهَا. وَمَا أَجْدَرْنَا أَنْ نَحْطَمَ الْبَيْضَةَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا الْحَيَّةُ. إِنَّ عَقْلَ «قَيْصَرٍ» رَاجِحٌ لَمْ تَغَالِبْهُ الْأَهْوَاءُ وَالنَّزَعَاتُ الضَّارَّةُ، وَلَمْ يُغَيِّرْهُ النَّجَاحُ — فِيمَا نَعْلَمُ — وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ قَدْ حَدَرْتَنَا أَنْ نَخْذِعَ بِتِلْكَ الْمَظَاهِرِ؛ فَإِنَّ الْعُظَمَاءَ جَمِيعًا يَتَّخِذُونَ التَّوَاضِعَ — فِي بَدءِ حَيَاتِهِمْ — مَرْقَاةً إِلَى أَطْمَاعِهِمْ، وَسَلْمًا لِتَحْقِيقِ أَغْرَاضِهِمْ؛ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا الْقِمَّةَ، نَسُوا كُلَّ شَيْءٍ، وَتَطَلَّعُوا إِلَى سَمَاءِ الْعُظَمَاءِ. وَلَمْ يَذْكُرُوا السَّلْمَ الَّذِي صَعِدُوا أَدْرَاجَهُ، وَارْتَقُوا مَرَاتِبَهُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، وَلَمْ يَعْرِفُوا لَهُ فَضْلًا عَلَيْهِمْ.»

(٣) بَطَاقَةُ الْمُوَاظِرَةِ

وَظَلَّ «بُرُوتْسُ» يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِهَذِهِ التَّعَلَّاتِ الْخَاطِئَةِ. وَإِنَّهُ لَغَارِقٌ فِي أَوْهَامِهِ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ خَادِمُهُ «لُسيوسُ» وَفِي يَدِهِ بَطَاقَةٌ أَلْقَى بِهَا الْمُؤْتَمِرُونَ مِنْ نَافِذَةِ عُرْفَتِهِ، وَفِيهَا: «أَيُّهَا النَّائِمُ! اسْتَيْقِظْ، فَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْعَمَلِ، وَاقْتَدِ بِأَسْلَافِكَ (اتَّبِعْ مَنْ قَبْلَكَ) مِنَ الْفَاتِحِينَ؛ فَإِنَّ إِنْقَادَ «رُومَةَ» لَنْ يَنْمَّ إِلَّا عَلَى يَدَيْكَ.»

وَمَا انْتَهَى «بُرُوتْسُ» مِنْ قِرَاءَةِ الْبَطَاقَةِ، حَتَّى سَمِعَ طَرَقًا بِالْبَابِ، وَكَانَ الْقَادِمُ «كَسْيَاسُ» وَمَعَهُ أَرْبَعَةٌ مِنْ رِفَاقِهِ الْمُؤْتَمِرِينَ بِ«قَيْصَرٍ»، وَهُمْ جَمِيعًا مُلْتَمُونَ (مُغْطُونَ أَوْجُهُهُمْ) لَا يَبْدُو مِنْهُمْ غَيْرُ أَعْيُنِهِمْ. فَأَمَرَهُمْ «بُرُوتْسُ» أَنْ يُمِيطُوا اللَّتَامَ (يَرْفَعُوهُ عَنِ وُجُوهِهِمْ)، وَقَالَ لَهُمْ: «لَسْنَا أَنْتُمْ وَلَا مُجْرِمِينَ، فَمَا بَالُنَا نَعْمَلُ فِي الظَّلَامِ؟»

ثُمَّ جَلَسُوا يَتَشَاوَرُونَ سَاعَةً فِيمَا يَفْعَلُونَ. وَاقْتَرَحَ «كَسْيَاسُ» أَنْ يُقْسِمُوا جَمِيعًا عَلَى الْوَفَاءِ بِعُهُودِهِمْ لوطَنِهِمُ الْعَزِيزِ، وَالْإِنْتِقَامِ مِنْ «قَيْصَرٍ» الْمُسْتَبِدِّ. فَصَاحَ فِيهِمْ «بُرُوتْسُ» صِيحَةً الْمُغْضَبِ الْحَاقِقِ: «مَا حَاجَتُنَا إِلَى الْقَسَمِ، وَنَحْنُ رِجَالٌ لَا نَتَرَدَّدُ فِيمَا نَعْتَزِمُ؟ إِنَّ الْأَمْنَآ وَآمَالَنَا وَاحِدَةٌ، وَقَدْ أَلَيْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا (أَقْسَمْنَا) أَنْ نَخْذِمَ الْوَطْنَ، وَنُنْقِذَ «رُومَةَ»

وَبَنِبِطَشَ بِالْمُسْتَبَدِّ الظَّالِمِ. فَإِذَا لَمْ نَكُنْ خَلِيقِينَ بِتَحْقِيقِ آمَالِ الْبِلَادِ، فَلَا حَيْرَ فِينَا، وَلَا فَائِدَةَ مِنَ الْقَسَمِ.» فَأَمَّنُوا جَمِيعًا عَلَى رَأْيِهِ.

(٤) افتراح «كسياس»

ثُمَّ قَالَ «كَسِيَّاسُ»: «لَا فَائِدَةَ مِنْ قَتْلِ «فَيْصَرَ» إِذَا لَمْ نَنْتَبِعْهُ قَتْلَ صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ «أَنْطُنْيُوسَ»؛ حَتَّى لَا يَهِيحَ الشَّعْبُ، فَيُحَرِّضُهُ عَلَى إِيْذَانِنَا وَالْإِنْتِقَامِ مِنَّا.»
فَقَالَ «بُرُونَسُ»: «لَا سَبِيلَ لَنَا إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الْاِفْتِرَاحِ، وَإِلَّا أَصْبَحْنَا مُجْرِمِينَ سَفَاحِينَ (مُسِيلِينَ لِلدَّمَاءِ مُجِبِّينَ لِلْعُدْرِ).

لَقَدْ اعْتَزَمْنَا أَنْ نُنْقِذَ الْبِلَادَ مِنْ اسْتِبْدَادِ «فَيْصَرَ» وَظُلْمِهِ، فَمَا ذَنْبُ «أَنْطُنْيُوسَ»؟ وَمَا بَالُنَا نَجْرَعُ مِنْهُ، وَهُوَ لَمْ يَسِئْ إِلَى وَطَنِنَا، وَلَمْ تَبْدُرْ مِنْهُ إِسَاءَةٌ إِلَى «رُومَةَ»؟ لَوْ أَنَّنَا قَدَرْنَا عَلَى إِزْهَاقِ رُوحِ «فَيْصَرَ» دُونَ أَنْ نُرِيقَ مِنْ دَمِهِ قَطْرَةً وَاحِدَةً، لَكُنَّا أَسْعَدَ النَّاسِ. وَلَكِنْ وَآسَفَاهُ! لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ، وَلَا مَعْدَى لَنَا (لَا مَخْلَصَ) عَنْ سَفْكِ دَمِهِ مُرْغَمِينَ، لِتَحْقِيقِ غَايَتِنَا النَّبِيلَةِ. وَلَوْ لَا تَفَانِنَا فِي نَصْرَةِ الْوَاجِبِ وَخِدْمَةِ الْوَطَنِ، لَمَا فَكَّرْنَا لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي الْإِقْدَامِ عَلَى هَذِهِ الْفَعْلَةِ النَّكَرَاءِ.»
فَلَمْ يَجِدْ «كَسِيَّاسُ» بُدًّا مِنْ مُوَافَقَةِ «بُرُونَسَ» عَلَى مَا قَالَ.

(٥) في السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ

ثُمَّ دَقَّتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ «كَسِيَّاسُ»: «لَقَدْ حَانَ وَقْتُ الْإِنْصِرَافِ، فَوَدَاعًا أَيُّهَا الصَّدِيقُ النَّبِيلُ، حَقَّقَ اللَّهُ آمَالَنَا، وَأَنْجَحَ مَسْعَانَا.
وَلَكِنِّي أَحْشَى أَنْ يَتَخَلَّفَ «فَيْصَرُ» فِي هَذَا الْيَوْمِ عَنِ الدَّهَابِ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَخَافُ وَيَنْطَبِرُ (يَنْشَاءُ)، وَرُبَّمَا لَزِمَ بَيْتَهُ اتِّقَاءً لِمَا سَمِعَهُ مِنَ الْعُرَافِ، وَمَا رَأَهُ — اللَّيْلَةَ — مِنَ الْمُرْعَجَاتِ.»
فَقَالَ أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ: «لَا يَهْمُكُمْ ذَلِكَ؛ فَإِنِّي كَفَيْلٌ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ قَصْرِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَسَأَعْرِفُ كَيْفَ أَنْمَلُّهُ وَأَتَحَبَّبُ إِلَيْهِ، وَأَزَيِّنُ لَهُ الدَّهَابَ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ؛ حَتَّى لَا تَقْلَتَ مِنْ أَيْدِينَا هَذِهِ الْفُرْصَةُ الثَّمِينَةُ النَّادِرَةُ.»

وَهَكَذَا قَرَّ قَرَارُهُمْ، وَأَعَدُّوا عِدَّتَهُمْ لَلْفَتِكِ بِ«قَيْصَرَ» فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْنُومِ. ثُمَّ وَدَّعُوا «بُرُوتْسَ»، وَخَرَجُوا مَسْرُورِينَ بِمَا أَحْرَزُوهُ مِنْ فَوْزٍ وَشِيكِ (نَجَاحٍ قَرِيبٍ).

(٦) حِوَارُ «بُرِشَا»

وَبَقِيَ «بُرُوتْسُ» غَارِقًا فِي وَسَاوِسِهِ وَأَحْلَامِهِ، وَإِنَّهُ لَيَفْكُرُ فِي هَذِهِ الْمُوَامَرَةِ الْخَطِيرَةِ، إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجُهُ «بُرِشَا».

فَدَهَشَ «بُرُوتْسُ» لِمَقْدَمِهَا، وَدَخُلَهَا عَلَيْهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْمُبَكَّرَةِ، وَسَأَلَهَا مُنَعَجِبًا: «مَاذَا أَلَمَ بِكَ، أَيَّتُهَا الزَّوْجُ الْعَزِيزَةُ؟»

فَقَالَتْ لَهُ «بُرِشَا»: «مَا أَعْجَبَ مَا يَبْدُو مِنْكَ مِنْ شُدُودٍ فِي هَذَا الْيَوْمِ! تَرَى: أَيُّ شَيْءٍ قَدْ هَاجَ بِبَالِكَ، وَأَثَارَ هَمِّكَ وَعَمَلِكَ، وَأَزْعَجَ خَاطِرِكَ؟ أَيُّ حَادِثٍ أَقْضَى مَضْجَعَكَ (جَعَلَهُ خَشِنًا لَا تَطْمَئِنُّ عَلَيْهِ)؟ وَأَيُّ عَارِضٍ غَيْرٍ مِنْ أَخْلَاقِكَ؟ وَمَا بِأَلِكِ أَبَيْتَ أَنْ تُجِيبَنِي لَيْلَةً أَمْسٍ، حِينَ سَأَلْتِكَ عَنْ مَصْدَرِ شِكْوَاكَ وَمَبْعَثِ أَلَمِكَ؟ أَلَسْتُ أَنَا زَوْجُكَ الْوَفِيَّةَ الْمُخْلِصَةَ الْبَارَّةَ؟ أَلَسْتُ جَدِيدَةً أَنْ تَتَّقَ بِي، وَتَفْضِيَ إِلَيَّ بِدِخْلِكَ (تَبَوَّحَ لِي بِخَفِيِّ أَمْرِكَ)؟ فَمَا بِأَلِكِ تُحَذِّرُنِي، وَتَكْتُمُ عَنِّي مَصْدَرَ أَلَمِكَ، وَتَحْجُبُ دُونِي سِرَّ مَتَاعِبِكَ؟ وَكَيْفَ تَتَسَلَّلُ مِنْ فِرَاشِي خُفِيَّةً دُونَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا أَقْضَى عَلَيْكَ مَضْجَعَكَ؟ وَلِمَاذَا تَتَنَفَّضُ مَدْعُورًا — لَيْلَةً أَمْسٍ — حِينَ كُنَّا نَتَعَشَّى، وَنَمِشِي فِي أَنْحَاءِ الْعُرْفَةِ ضَامًّا ذِرَاعَيْكَ إِلَى صَدْرِكَ، حَائِزَ النَّظَرَاتِ، يَكَادُ الْأَسَى يَفْتِكُ بِكَ، وَأَنْتِ تَتَنَفَّسُ الصُّعْدَاءَ (تَتَنَفَّسُ طَوِيلًا مِنْ شِدَّةِ الْهَمِّ)، وَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْكَ الذُّهُولُ وَالْحَيْرَةُ؟ فَلَمَّا سَأَلْتُكَ — فِي رَفَقٍ وَحَنَانٍ — عَمَّا أَلَمَ بِكَ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْخُطُوبِ، ثَارَ ثَائِرُكَ، وَنَظَرْتَ إِلَيَّ نَظْرَةً فِيهَا أَلْفُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْقَسْوَةِ وَالْحَقْدِ وَالْكَرَاهِيَةِ. فَلَمَّا أَلْحَحْتُ عَلَيْكَ خَاشِنَتْنِي (أَغْلَطْتَ عَلَيَّ فِي الْكَلَامِ)، وَضَرَبْتَ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ، وَلَذْتَ بِالصَّمْتِ، وَكَلَجْتَ إِلَى السُّكَاتِ، وَأَشْرَتَ إِلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ لِشَأْنِي. فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنَ الْإِنْدِعَانِ لِإِشَارَتِكَ، وَقَدْ أَيَقَنْتُ أَنْنِي — إِذَا أَصْرَرْتُ عَلَى سُؤَالِكَ — أَلْهَبْتُ ثَوْرَتَكَ، وَحَمَلْتُكَ عَلَى النَّمَادِي فِي شَرِّكَ. وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ تَقْسُو فِيهَا عَلَيَّ. فَلَمْ تَكْتُمِ عَنِّي — أَيُّهَا الزَّوْجُ النَّبِيلُ — مَا تَحْسُهُ مِنْ الْأَمِّ؟ أَلَسْتُ عَلَى ثِقَةٍ أَنْنِي شَرِيكَتُكَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَحَلِيفَتُكَ فِي الْحَيْرِ وَالشَّرِّ، وَأَنْنِي لَكَ صَادِقَةٌ أَمِينَةٌ، وَأَنَّكَ لِي نِعَمُ الزَّوْجِ الْبَارِّ الْوَفِيِّ الَّذِي لَا أَعْدِلُ بِهِ بَدِيلًا، وَالَّذِي هُوَ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَأَتَمُّ مِنَ الْحَيَاةِ بِكُلِّ مَا تَحْوِيهِ مِنْ مَبَاهِجٍ وَأَفْرَاحٍ.»

(٧) رَسُولُ الشَّرِّ

وَمَا سَمِعَ «بُرُوتْس» مِنْ زَوْجِهِ هَذَا الْعِتَابَ الرَّقِيقَ، حَتَّى لَانَ جَانِبُهُ، وَسُرِّي عَنْهُ، وَطَابَ خَاطِرُهُ. وَهَمَّ بِأَنْ يُفْضِيَ إِلَى زَوْجِهِ بِدِخْلَتِهِ (يُحَدِّثُهَا بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ)، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ طَرْقًا بِالْبَابِ؛ فَوَعَدَهَا بِأَنْ يُخْبِرَهَا بِحَلِيَّةِ الْأَمْرِ (حَقِيقَتِهِ)، بَعْدَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ ذَلِكَ الزَّائِرِ. وَلَمْ يَلْقَ «بُرُوتْس» ضَيْفَهُ، حَتَّى عَرَفَ أَنَّهُ أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِ«قَيْصَر»، جَاءَ إِلَيْهِ لِيَحْفِزَهُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ لِتَنْفِيزِ الْمُؤَامَرَةِ الشَّنْعَاءِ. فَارْتَدَى «بُرُوتْس» ثِيَابَهُ عَلَى عَجَلٍ، وَخَرَجَ مَعَ الزَّائِرِ، دُونَ أَنْ يُخْبِرَ زَوْجَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا يَجُولُ فِي نَفْسِهِ، (يَتَرَدَّدُ فِيهَا) مِنَ الْوَسَاوِسِ الْمُرْجَعَةِ. وَجَلَسَتْ «بُرْشَا» تَرْتَقِبُ عَوْدَةَ زَوْجِهَا فَلَقَّةً مَهْمُومَةً، وَهِيَ لَا تَعْلَمُ مَا يَحْبُوهُ الْقَدَرُ مِنْ مُرْجَعَاتٍ وَأَحْدَاثٍ.

(٨) فِي بَيْتِ «قَيْصَرٍ»

أَمَّا «قَيْصَرٌ» فَقَدْ نَهَضَ مِنْ نَوْمِهِ مُبَكَّرًا، وَهُوَ مُفْرَعُ الْقَلْبِ، إِثْرَ مَا رَأَاهُ مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالْأَحْلَامِ الرَّاعِيَةِ (الْمُخِيفَةِ) فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلَاءِ. وَقَدْ قَضَتْ زَوْجُهُ «كَلْبُرِيَا» لَيْلَةً هَائِلَةً، وَنَهَضَتْ مِنْ نَوْمِهَا خَائِفَةً مَدْعُورَةً مَرَّاتٍ ثَلَاثًا، وَهِيَ تَصِيحُ مُرْوَعَةً مُفْرَعَةً: «وَا غَوَاثَا! وََا مُصِيبَاتَا! أَدْرِكُوا «قَيْصَرَ». لَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الْفَتَاكُ الْأَثْمُونُ، وَأَنْشَبُوا فِي جِسْمِهِ خَنَاجِرَهُمُ الْمَاضِيَةَ، أَدْرِكُوهُ فَإِنَّ الدَّمَاءَ تَتَدَفَّقُ مِنْ جَسَدِهِ!»

وَلَقَدْ دَعَرَ كُلُّ مَنْ فِي الْقَصْرِ لِصِيحَاتِهَا، وَفَزِعُوا لِفَزَعِهَا، وَحَاوَلُوا جُهْدَهُمْ أَنْ يُسْرُوا عَنْهَا؛ فَذَهَبَتْ مَسَاعِيهِمْ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ (ضَاعَتْ بِلَا فَائِدَةٍ). فَلَمَّا أَصْبَحَتْ، حَاوَلَتْ جُهْدَهَا أَنْ تَمْنَعَ «قَيْصَرَ» مِنَ الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَشْهُومِ. وَلَكِنَّ «قَيْصَرَ» أَبَى أَنْ يَسْمَعَ لَهَا قَوْلًا، وَهَرَأَ بِكُلِّ مَا رَأَاهُ وَسَمِعَهُ مِنَ النَّذْرِ (النَّصَائِحِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي أُنذِرَ بِهَا وَحُذِرَ)؛ فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ: «لَسْتُ مِمَّنْ يُعْنَى بِسَفْسَافِ الْأُمُورِ وَحَقِيرِهَا، وَتَأْفَهُ الْأَشْيَاءِ وَصَغِيرِهَا. وَلَكِنِّي أَشْعُرُ — مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِي — بِشُؤْمِ هَذَا الْيَوْمِ وَنَحْسِهِ، وَأَضْرَعُ إِلَيْكَ مُتَوَسِّلَةً أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِكَ.»

فَقَالَ لَهَا «قَيْصَرٌ»: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَرْهَبُ الْمَوْتَ، وَلَا يَجْزَعُ مِنْ مُوَاجَهَةِ الْكُوَارِثِ، وَلِقَاءِ الْمَصَائِبِ. وَلَيْسَ «قَيْصَرٌ» مِمَّنْ يَخَافُ الرَّدَى، وَيَخْشَى الْمَوْتَ.»

فَقَالَتْ لَهُ زَوْجُهُ: «لَقَدْ سَأَلْتُ الْعَرَّافِينَ، فَحَدَّرُونِي هَذَا الْيَوْمَ، وَأَوْصُوا جَمِيعًا بِمَنْعِكَ مِنَ الْخُرُوجِ، حَتَّى لَا تَتَعَرَّضَ لِلْمَكَارِهِ وَالْخُطُوبِ.»
 فَقَالَ لَهَا «قَيْصَرُ» هَارِتًا: «لَسْتُ بِالْوَالِيهِ الْمُلتَاعِ (الْحَزِينِ الْمُتَوَجِّعِ)، وَلَسْتُ بِالْجَبَانِ الَّذِي يَمُوتُ أَلْفَ مَرَّةٍ لِأَنَّهُ يَخَافُ الْمَوْتَ دَائِمًا. وَإِنَّمَا أَنَا حُرٌّ لَا يَخْشَى شَيْئًا، وَلَا يَخْدَعُهُ ضَوْءُ النَّهَارِ الَّذِي يَلْمَعُ بِهِ الرَّمْلُ فِي الصَّحْرَاءِ، فَيَظُنُّهُ النَّاطِرُ — مِنْ بَعِيدٍ — مَاءً، وَهُوَ سَرَابٌ خَدَاعٌ. وَالْحُرُّ الْمُقْدَامُ لَا يَمُوتُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً حِينَ يَخْضُرُهُ أَجَلُهُ.»
 ثُمَّ قَالَ:

«يَحْيَا الْجَبَانَ بِقَلْبٍ وَإِلَيْهِ فَزِعِ
 يَمُوتُ أَلْفًا، وَيَخْشَى — مِنْ مَهَانَتِهِ —
 وَالْحُرُّ لَا يَرْهَبُ الْأَحْدَاثَ — إِنْ وَقَعَتْ —
 يَمُوتُ وَاحِدَةً — إِنْ جَاءَهُ أَجَلٌ —
 يَخْشَى الرَّدَى، وَيَهَابُ الْمَوْتَ مُرْتَاعًا
 شَرَّ الْحَمَامِ، وَيَبْقَى الدَّهْرَ مُلْتَاعًا
 وَلَا يُرْجِي سَرَابًا لِأَخِ خَدَاعًا
 وَلَيْسَ يَرْهَبُ آلامًا وَأَوْجَاعًا!»

(٩) حُلْمٌ «كَلْبَرِنِيَا»

فَقَصَّتْ عَلَيْهِ «كَلْبَرِنِيَا» حُلْمًا مُفْرَعًا رَأَتْهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَتَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفَ عَنِ الْخُرُوجِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَقَالَتْ لَهُ: «لَا تَخَشْ — أَيُّهَا السَّيِّدُ الْجَلِيلُ — أَنْ يَنْهَمَكَ النَّاسُ بِالْخَوْفِ؛ فَإِنَّ شَجَاعَتَكَ مَعْرُوفَةٌ ذَائِعَةٌ. وَسَيَقُولُ النَّاسُ جَمِيعًا: إِنَّ «قَيْصَرَ» قَدْ عَدَلَ عَنِ الْخُرُوجِ إِذْضَاءَ لِرُزُوجِهِ، وَبَرًّا بِهَا. وَسَيَعْرِفُونَ أَنَّ خَوْفَ زَوْجِكَ — لَا خَوْفَكَ أَنْتَ — هُوَ السِّرُّ فِي امْتِنَاعِكَ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ.»



ثُمَّ رَكَعَتْ جَائِيَةً (جَالِسَةً عَلَى رُكْبَتَيْهَا) ضَارِعَةً إِلَيْهِ، مُسْتَشْفِعَةً بِهِ أَلَّا يُحَيِّبَ رَجَاءَهَا، وَأَلَّا يَتْرُكَهَا نَهَبَ الْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ (عَرْضَةً لَهَا، تَنْهَبُهَا وَتَفْتَرِسُهَا)، وَأَنْ يُسِّرَ إِلَى «أَنْطُونْيُوسَ» بِالذَّهَابِ إِلَى دَارِ النَّبِيَّاتِ، لِيُخَبِّرَ نَوَابَ «رُومَةَ» أَنَّ «قَيْصَرَ» قَدْ امْتَنَعَ عَنِ الذَّهَابِ إِلَيْهِمْ، لِأَمْرِ طَارِيٍّ أَلَمَ بِهِ. فَلَمْ يَرَ «قَيْصَرَ» بُدًّا مِنْ تَلْيِيقِ رَجَائِهَا، وَاعْتَزَمَ الْبَقَاءَ فِي قَصْرِهِ إِرْضَاءً لَهَا.

(١٠) تَأْوِيلُ الرُّوْيَا

وَمَا اسْتَقَرَّ قَرَارُهُ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِ «دِسْيَاسُ» — أَحَدُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِهِ — يَدْعُوهُ إِلَى الْخُرُوجِ. فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «لَقَدْ اعْتَزَمْتُ الْبَقَاءَ فِي بَيْتِي — هَذَا الْيَوْمَ — فَأَذْهَبُ إِلَى نَوَابِ «رُومَةَ» وَاحْمِلْ قَرَارِي إِلَيْهِمْ.»

فَقَالَتْ «كَلْبَرِنْيَا» لِلرَّسُولِ: «نَعَمْ، وَخَبَرَهُمْ أَنَّ «قَيْصَرَ» مَرِيضٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ.» فَصَاحَ «قَيْصَرُ»: «كَلَّا لَا تَفْعَلْ، يَا «دِسْيَاسُ»!»
ثُمَّ التَّفَتَتْ «قَيْصَرُ» إِلَى زَوْجِهِ، وَقَالَ: «أَتُرِيدِينِي عَلَى أَنْ أَكْذِبَ؟ أَلَا سَاءَ مَا تَتَوَهَّمِينَ، يَا لِلَّهِ! أَكْذِبُ «قَيْصَرُ»؟ وَهَلْ يَكْذِبُ الرَّجُلُ الشَّرِيفُ؟»

ثُمَّ صَاحَ فِي صَاحِبِهِ «دِسْيَاسُ» قَائِلًا: «كَلَّا، لَسْتُ مَرِيضًا؛ فَلَا تَكْذِبُهُمُ الْقَوْلَ، يَا «دِسْيَاسُ». حَسْبُكَ أَنْ تُخَبِّرَهُمْ أَنَّي قَدْ اعْتَزَمْتُ الْبَقَاءَ فِي الْبَيْتِ هَذَا النَّهَارِ.»

فَقَالَ لَهُ «دِسْيَاسُ»: «مَاذَا تَقُولُ، يَا سَيِّدِي الْقَيْصَرُ؟ وَكَيْفَ يَتَلَقَّى النَّوَابُ هَذَا الْفَرَارَ؟»

فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ»: «لَقَدْ رَأَتْ زَوْجِي — فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ — حُلْمًا هَائِلًا (مُخِيفًا)، مَلَأَ قَلْبَهَا فَرْعًا وَرُعْبًا، إِذْ أَبْصَرَتْ فِي مَنَامِهَا تَمَثَّلِي، وَقَدْ فَاضَ مِنْهُ مِائَةٌ نَبْعٍ مِنَ الدَّمَاءِ الزَّكِيَّةِ (الطَّيِّبَةِ الطَّاهِرَةِ)، ثُمَّ أَقْبَلَتْ جَمَهْرَةً مِنْ أَهْلِ «رُومَةَ»، فَغَمَسَتْ أَيْدِيهَا فِي الدَّمَاءِ مُبْتَهَجَةً مَسْرُورَةً.

وَقَدْ هَالَتْ زَوْجِي تِلْكَ الرُّؤْيَا وَأَخَافَتَهَا، وَرَعِبَتْهَا وَفَزَعَتْهَا؛ فَأَصْرَتْ عَلَى بَقَائِي مَعَهَا فِي الدَّارِ، طَوَّلَ هَذَا النَّهَارِ.

فَصَحِكَ «دِسْيَاسُ»، وَقَالَ لـ «قَيْصَرِ»: «أَيُّ فَرْعٍ فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا السَّارَّةِ الْبَهِيجَةِ؟ إِنَّ لِي رَأْيًا فِي تَأْوِيلِهَا (تَفْسِيرِهَا) غَيْرَ مَا تَرِيَانِ؛ فَإِنَّ الْأَحْلَامَ تُؤَوَّلُ (تُعَبَّرُ) عَلَى عَكْسِ مَا يَرَاهُ الْحَالِمُ، وَلَسْتُ أَرَى فِي تِلْكَ الدَّمَاءِ الْمُرَاقَةِ (الْمُسْفُوحَةِ الْمَسْكُوبَةِ) — الَّتِي سَأَلْتَ مِنْ تِمَثَّالِكَ، وَاعْتَسَلَ فِيهَا أَشْرَافُ «رُومَةَ» — إِلَّا دَلِيلًا جَدِيدًا عَلَى مَا يَبْعَثُ رُوحَكَ الْعَظِيمُ — فِي أَبْنَاءِ «رُومَةَ» — مِنَ الْقُوَّةِ، وَمَا تَكْسِبُ دِمَاؤُكَ الزَّكِيَّةَ وَطَنَكَ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْفُتُوَّةِ. وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّ ذَلِكَ الْحُلْمَ الْبَهِيحَ يَدُلُّ عَلَى مَكَانَتِكَ فِي قُلُوبِ الرُّومَانِ، إِذْ يَمْتَلُّ أَفْئَادًا «رُومَةَ» (أَفْرَادَهَا الْمُتَمَازِينَ) وَعُظْمَاءَهَا، مُقْبِلِينَ عَلَيْكَ، مُعْجَبِينَ بِمَزَايِكَ الْبَاهِرَةِ، رَاغِبِينَ فِي أَنْ يَطْفَرُوا بِأَنْثَرٍ مِنْ أَتَارِكَ الزَّكِيَّةِ الطَّاهِرَةِ.»

(١١) حَيْلَةُ «دِسْيَاسُ»

فَابْتَهَجَ «قَيْصَرُ» بِمَا سَمِعَ، وَسَرَّ مِنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا، وَعَدَلَ عَنِ الْبَقَاءِ فِي دَارِهِ. فَاسْتَأْنَفَ «دِسْيَاسُ» كَلِمَةً قَائِلًا: «لَقَدْ اعْتَرَمَ سَرَاةَ «رُومَةَ» (أَشْرَافَهَا) أَنْ يَمْنَحُوكَ التَّاجَ فِي هَذَا الْيَوْمِ، وَرُبَّمَا أَعْضَبُهُمْ تَخْلُفُكَ عَنِ الْحُضُورِ، وَرَأَوْا فِي ذَلِكَ إِزْرَاءً (تَحْقِيرًا) لَهُمْ، وَاسْتِهَانَةً بِهِمْ، وَتَعَالِيًا عَلَيْهِمْ؛ فَعَدَلُوا عَنْ رَأْيِهِمْ فِيكَ، وَانْقَلَبَ حُبُّهُمْ إِيَّاكَ ضَغِينَةً عَلَيْكَ وَحَقْدًا.

وَلَنْ يَقْبَلَ كَائِنٌ كَانَ أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّ «قَيْصَرَ» يَخَافُ لَخَوْفِ زَوْجِهِ، وَيَنْسَى وَاجِبَهُ اتِّقَاءَ لَوْسَاوِسٍ لَا خَطَرَ لَهَا. وَلَنْ يَدُورَ بِخَلْدِ إِنْسَانٍ (لَنْ يَمُرَّ بِخَاطِرِ أَحَدٍ)، أَنَّ «قَيْصَرَ» يَنْسَى شَعْبَهُ، مُسْتَسْلِمًا لِأَضْعَافِ الْأَحْلَامِ (أَخْلَاطِهَا).

الفصل الثاني

وَلَقَدْ كُنْتُ — لَوْلَا حُبِّيكَ (مَحَبَّتِي إِيَّاكَ) وَوَفَائِي لَكَ — مُفِرِّكَ عَلَى رَأْيِكَ؛ وَلَكِنِّي
 أَخْشَى — إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ — أَنْ أَكُونَ مِنَ الْأَثَمَةِ الْغَادِرِينَ!
 فَحَجَلَ «قَيْصَرُ» مِمَّا سَمِعَ، وَقَرَّرَ الذَّهَابَ — مِنْ فَوْرِهِ — إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ. وَارْتَدَى
 عَبَاءَتَهُ، وَهَمَّ بِالْخُرُوجِ؛ فَرَأَى بَقِيَّةَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِهِ قَائِمِينَ عَلَى دَارِهِ — وَعَلَى رَأْسِهِمْ
 «بُرُوتَسُ» — يَدْعُوْنَهُ لِمِرَافَقَتِهِمْ إِلَى دَارِ النِّيَابَةِ.
 ثُمَّ جَاءَ صَدِيقُهُ الْوَفِيُّ «أَنْطُونْيُوسُ»، وَخَرَجُوا جَمِيعًا مَعَ «قَيْصَرِ»، وَقَدْ سُرِّي عَنْهُ،
 وَزَالَتْ وَحْشَتُهُ، وَذَهَبَ مَا كَانَ يُسَاوِرُهُ مِنَ الْمَخَافِيفِ.

(١٢) جَزَعُ «بُرُوتَسَا»

أَمَّا «بُرُوتَسَا» — زَوْجُ «بُرُوتَسِ» — فَقَدْ اشْتَدَّ جَزَعُهَا عَلَى زَوْجِهَا. وَقَدْ أَدْرَكَتْ — مِمَّا
 رَأَتْهُ مِنَ الْأَضْطِرَابِ عَلَى أَسَارِيرِهِ (خُطُوطِ جَبِينِهِ) — أَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى أَمْرِ جَلَلٍ (عَظِيمٍ)،
 وَخَشِيَتْ أَنْ يُصِيبَهُ سُوءٌ. فَلَمَّا بَلَغَتِ السَّاعَةَ التَّاسِعَةَ، أَمَرَتْ خَادِمَهَا أَنْ يَذْهَبَ إِلَى دَارِ
 النِّيَابَةِ لِيَطْمَئِنِّهَا.

وَلَكِنِّهَا سَمِعَتْ صَوْتًا خَافِتًا؛ فَارْهَفَتْ أُذُنَيْهَا، حَتَّى دَانَاهَا الصَّوْتُ؛ فَرَأَتْ عَرَاْفًا يَقْتَرِبُ،
 فَانَادَتْهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا. فَسَأَلَتْهُ عَمَّا يَخْبُوهُ الْقَدْرُ لِرَوْجِهَا مِنَ الْأَحْدَاثِ.



فَقَالَ لَهَا الْعَرَّافُ: «أَرَى أَنَّ زَوْجَكَ يَهُمُّ بِعَظِيمَةٍ مِنْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ، وَأَخَشَى أَنْ يَلْقَى — مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْخُطُوبِ — مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا عَلَّامُ الْغُيُوبِ.»
فَقَالَتْ لَهُ «پُرَشَا» مَحْزُونَةٌ خَائِفَةٌ: «هَلْ خَرَجَ «قَيْصَرُ» مِنْ دَارِهِ؟»
فَأَجَابَهَا الْعَرَّافُ: «لَقَدْ حَانَ مَوْعِدُ خُرُوجِهِ، وَسَأَذْهَبُ إِلَيْهِ؛ لِأُحَدِّثَهُ عَاقِبَةَ هَذَا الْيَوْمِ الْمَشْتُومِ.»

الفصل الثالث

(١) النذير الأول

أَمَا «قَيْصِرُ» فَقَدْ سَارَ مَعَ رِفَاقِهِ الْغَادِرِينَ — وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا تَحْبُوهُ لَهُ الْأَقْدَارُ — حَتَّى بَلَغُوا دَارَ النَّيَابَةِ.

وَمَا سَارَ «قَيْصِرُ» خُطُواتٍ قَلِيلَةً، حَتَّى دَانَاهُ فَيْلَسُوفُ رُومِيٍّ (يُونَانِيٌّ). وَكَانَ هَذَا الْفَيْلَسُوفُ الرُّومِيُّ يُحِبُّ «قَيْصِرَ» وَيُخْلِصُ لَهُ؛ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَرَقَةً يُحَدِّثُ فِيهَا عَدْرَ أَصْحَابِهِ الْمُحِيطِينَ بِهِ.

فَقَالَ لَهُ «قَيْصِرُ»: «أَرْجِي هَذِهِ الْوَرَقَةَ إِلَى مَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ». فَقَالَ لَهُ الْفَيْلَسُوفُ النَّاصِحُ: «بِرَبِّكَ — يَا سَيِّدِي الْقَيْصِرَ — عَجِّلْ بِقِرَاءَتِهَا؛ فَإِنَّ فِيهَا أَمْرًا خَطِيرًا يَعْنيكَ، وَيَهْمُكَ أَنْ تَتَعَرَّفَهُ». فَقَالَ لَهُ «قَيْصِرُ»: «مَا دَامَتِ الْوَرَقَةُ لَا تَعْنِي سِوَايَ، وَلَا تَهْمُ غَيْرِي، فَإِنِّي مُرْجِي رُؤْيَيْهَا، وَمُؤَخَّرُ قِرَاءَتِهَا حَتَّى أَنْتَهِيَ مِنْ وَاجِبَاتِ الدَّوْلَةِ وَفُرُوضِهَا.»

فَلَمَّا رَأَى «كَسْيَاسُ» الدَّاهِيَةَ الذَّكِيَّ الْإِلْحَاحَ ذَلِكَ النَّاصِحِ، خَشِيَ أَنْ تَسُوءَ الْعَاقِبَةُ، وَتَوَجَّسَ مِنْهُ شَرًّا؛ فَقَالَ لَهُ غَاضِبًا: «حَذَارِ أَنْ تُلْحِفَ (إِيَّاكَ أَنْ تُلْحِجَ) عَلَى الْقَيْصِرِ الْعَظِيمِ! وَحَسْبُكَ أَنَّهُ قَدْ وَعَدَكَ بِالنَّظَرِ فِي أَمْرِكَ.»

وَأَنْتَهَرَ «كَسْيَاسُ» الْمَاهِرُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ، فَأَخَذَ الْوَرَقَةَ، وَاسْتَبَدَلَ بِهَا أُخْرَى؛ لِیَأْمَنَ كُلَّ شَرٍّ.

(٢) النَّذِيرُ الثَّانِي

وَسَارَ «قَيْصَرُ» حُطُوتٍ قَلِيلَةً أُخْرَى، فَلَمَحَ الْعُرَافَ الَّذِي حَدَّرَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ — مِنْ قَبْلُ — فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ» بِاسْمًا: «أَلَيْسَ هَذَا الْيَوْمَ مُنْتَصَفَ «مَارِسَ» الَّذِي حَدَّرْتَنِي إِيَّاهُ؟»
فَقَالَ لَهُ الْعُرَافُ: «إِنَّ الْيَوْمَ — يَا سَيِّدِي الْقَيْصَرُ — لَمَّا يَنْتَه، وَلَا زِلْتُ أَوْصِيكَ
بِالْيَقْظَةِ وَالْحَدْرِ.»
فَقَالَ لَهُ «قَيْصَرُ» هَازِتًا: «مَا أَنَا بِحَاجَةٍ إِلَى تَحْذِيرِكَ؛ فَإِنَّ «قَيْصَرَ» لَا يَخْشَى كَائِنًا
كَانَ.»

(٣) ضَرَاعَةُ الْمُؤْتَمِرِينَ

ثُمَّ تَبَوَّأَ «قَيْصَرُ» — سَيِّدُ الدُّنْيَا — مَجْلِسَهُ، تَحْتَ تِمْتَالِ «بُمِي»، وَأَحَاطَ بِهِ شُيُوخُ
«رُومَةَ».



وَتَأَهَّبَ الْمُؤْتَمِرُونَ بِهِ، وَاسْتَعَدُّوا لِإِتْفَازِ جَرِيمَتِهِمْ.
فَاقْتَرَبَ أَحَدُهُمْ مِنْ «أَنْطُونْيُوسَ» — صَدِيقِ الْقَيْصَرِ الْحَمِيمِ — وَشَغَلَهُ بِشَتَّى
الْحَدِيثِ، وَاسْتَدْرَجَهُ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ مَجْلِسِ «قَيْصَرَ»؛ لِيَمَكِّنَ رِفَاقَهُ مِنْ اغْتِيَالِ سَيِّدِ

«رُومَة» وَرَعِيمَهَا الْأَوْحِدَ. وَتَقَدَّمَ «مَتِيلُوسُ» مُتَوَجِّهًا إِلَى «قَيْصَرَ»؛ فَرَكَعَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ضَارِعًا، مُتَوَسِّلًا إِلَيْهِ أَنْ يَغْفُوَ عَنْ أَخِيهِ، وَيَرْجِعَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَنَفَاهُ السَّحِيقِ (الْبَعِيدِ). فَغَضِبَ عَلَيْهِ «قَيْصَرُ»، وَقَالَ لَهُ: «إِنَّ الْمَهَانَةَ وَالْمَذَلَّةَ وَالضَّرَاعَةَ لَا تَلْبِقُ بِالرِّجَالِ، وَائِسَ «قَيْصَرُ» بِنَاقِضِ حُكْمِهِ، وَلَا رَاجِعِ عَنَّهُ، وَلَا مُتَرَدِّدٍ فِي أَمْرِهِ.» فَانْضَمَّ إِلَيْهِ بَقِيَّةُ الْمُؤْتَمِرِينَ بِ«قَيْصَرَ»، وَرَكَعُوا — وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ — يَلْتَمِسُونَ الرَّحْمَةَ بِأَخِيهِ، وَالْعَفْوَ عَن زَلَّتِهِ (التَّجَاوُزِ عَن خَطِيئَتِهِ)؛ فَلَمْ يَزِدْ إِلَّا عِنَادًا وَإِصْرَارًا.

(٤) الْأَعْيُنَةُ الْأَخِيرَةُ

وَاقْتَرَبَ «بُرُوتَسُ» مِنْ صَدِيقِهِ «قَيْصَرَ» مُسْتَعِطْفًا، رَاجِيًا أَنْ يَقْبَلَ التَّمَّاسَ صَاحِبِهِ، وَيَرْجِعَ إِلَيْهِ أَخَاهُ مِنْ مَنَفَاهُ. فَقَالَ لَهُ: «لَيْسَ مِثْلُ «قَيْصَرَ» مَنْ يَلِينُ لِلرَّجَاءِ، أَوْ يَحُولُ عَن عَزْمِهِ. وَمَا كَانَ «قَيْصَرُ» لِيَنْقُضَ الْيَوْمَ مَا أَبْرَمَهُ بِالْأَمْسِ.»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «قَيْصَرُ» كَلَامَهُ، مَزْهُوًّا تَائِبًا، وَقَالَ: «إِنَّ نُجُومَ السَّمَاءِ تَظْهَرُ مُؤْتَلِقَاتٍ (تَبْدُو مُضِيئَةً مُلْتَمِعَةً)، وَلَكِنْ بَيْنَهَا نَجْمًا قُطْبِيًّا يَهْدِي الْحَائِرِينَ، وَيَتَّبِعُ ثَبَاتِ الرُّوَاسِي (الْجِبَالِ). كَذَلِكَ الرِّجَالُ: يَظْهَرُونَ وَقَدْ تَفَرَّقَتْ أَهْوَاؤُهُمْ، وَاخْتَلَفَتْ نَزَعَاتُهُمْ وَمَذَاهِبُهُمْ. وَلَكِنَّ «قَيْصَرَ رُومَةَ» — فِي هِمَّتِهِ السَّمَاءِ (الْعَالِيَةِ) — كَذَلِكَ النُّجْمِ الْقُطْبِيِّ فِي اللَّيْلَةِ الدِّيَجَاءِ (الشَّدِيدَةِ الظُّلْمَةِ)، فَلَا كِفَاءَ لَهُ (لَا نَظِيرَ). وَإِنَّ «قَيْصَرَ رُومَةَ» لِأَلْمَعِيِّ (قَوِيِّ الذِّكَاةِ، صَادِقِ الْفِرَاسَةِ وَالظَّنِّ)، وَإِنَّهُ لَدُو مَضَاءٍ (صَاحِبِ قُوَّةٍ وَنَفَازٍ). فَإِنْ أَقْرَأَ أَمْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ صُرُوفُ الْقَضَاءِ (حَوَادِثُ الْأَيَّامِ) أَنْ تَرُدَّهُ عَنَّهُ، وَتَقْفَهُ دُونَهُ.»

ثُمَّ قَالَ:

مَنْثُورَةٌ فِي الْفَضَاءِ	«هَذِي نُجُومُ السَّمَاءِ
فِي سَائِرِ الْأَرْجَاءِ	يَشْعُ مِنْهَا ضِيَاءٌ
تَجْرِي لِغَيْرِ انْتِهَاءِ	تَدُورُ مُؤْتَلِقَاتٍ،
يَبْدُو لِعَيْنِ الرَّائِي	وَتَمَّ — فِي الْقُطْبِ — نَجْمٌ
فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ	بِالنُّورِ يَهْدِي الْحَيَارَى

تَبَّتْ ثَبَاتَ الرَّوَاسِي
وَفِي الرَّجَالِ أُلُوفٌ
مِثْلُ النُّجُومِ تَرَاءَتْ
لَكِنَّ «قَيْصَرَ رُومًا»
يَسْمُو عَلَيْهِمْ جَمِيعًا
كَسَاطِعِ الْقُطْبِ يَهْدِي
يَجِلُّ عَنْ كُلِّ شَبِيهِ
لَا يَنْقُضُ النَّاسُ رَأْيَا
الْأَلْمَعِيِّ الْمُقَدِّي
وَمَنْ كَ «قَيْصَرَ رُومًا»
إِنْ رَاحَ يُبْرِمُ أَمْرًا
بَاقِ بَقَاءِ السَّمَاءِ
مُفَرَّقُوا الْأَهْوَاءِ
مَوْفُورَةَ الْأَضْوَاءِ
ذَا الْهَيْمَةَ الشَّمَاءِ
فِي رُفْعَةٍ وَاعْتِلَاءِ
فِي اللَّيْلَةِ الدَّيْجَاءِ
فَمَا لَهُ مِنْ كِفَاءِ!
لِسَيِّدِ الْعُظَمَاءِ
الْأَوْحَدِيِّ الذِّكَّاءِ
فِي عَزْمَةٍ وَمَضَاءِ
أَعْيَا صُرُوفِ الْقَضَاءِ!

(٥) مَضْرَعُ «قَيْصَرَ»

وَكَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ آخِرَةَ حَيَاةِ «قَيْصَرَ»، وَخَاتِمَةَ صَحِيفَتِهِ فِي الْوُجُودِ؛ فَمَا أَتَمَّهَا حَتَّى
صَاحَ «كَسْكَأ» ثَائِرًا: «تَكَلِّمِي الْآنَ، يَا يَدِي...!»
ثُمَّ طَعَنَهُ بِخَنْجَرِهِ طَعْنَةً نَجْلَاءً (وَاسِعَةً)، وَتَابَعَهُ رِفَاقُهُ بِخَنْجَرِهِمْ. ثُمَّ سَدَّدَ
«بُرُوتُسُ» طَعْنَةً إِلَى صَدِيقِهِ، فَذَهَلَ «قَيْصَرُ» مِمَّا رَأَى، وَقَالَ لـ«بُرُوتُسُ» مَدْهُوشًا: «حَتَّى
أَنْتَ يَا «بُرُوتُسُ»! الْآنَ يَمُوتُ «قَيْصَرُ»!»
ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُ «قَيْصَرَ»: زَعِيمُ «رُومَةَ» وَسَيِّدُهَا!

(٦) شِنَاعَةُ الْهُولِ

ذُعِرَ شُيُوخُ «رُومَةَ» وَسَرَاتُهَا (أَعْيَانُهَا)، وَسَوَادُ أَهْلِهَا (عَامَّةُ شَعْبِهَا) وَجُمُهورُ سَاكِنِيهَا،
وَاشْتَدَّ جَزَعُهُمْ لِمَضْرَعِ «قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ، وَصَاحَ الْقَتْلَةُ هَاتِفِينَ بِاسْمِ الْحَرِّيَّةِ، لِيُخَفِّفُوا
وَقَعَ الْمَصَابِ عَلَى قُلُوبِ النَّاسِ.



وَاشْتَدَّ هَيْجُ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَوَى الدُّعْرُ عَلَى الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ جَمِيعًا، حَتَّى سَلَبَهُمُ الْخَوْفُ عُقُولَهُمْ؛ فَجَرَوْا مَشْدُوهِينَ نَاهِلِينَ، وَصَاحُوا مِنْ فَرَطِ الْأَسَى وَالْخَوْفِ، فَمَلَكُوا الْفَضَاءَ بِصِيحَاتِهِمْ الْمَفْرَعَةَ.

وَلَمْ يَجِدِ الْمُؤْتَمِرُونَ — أَمَامَهُمْ — وَقْتًا يَتَشَاوَرُونَ فِيهِ؛ فَاقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ «بُرُوتَسُ» أَنْ يُشْهَرُوا سُيُوفَهُمْ، وَيَعْمَسُوا سَوَاعِدَهُمْ فِي دِمَاءِ «قَيْصَرَ»، هَاتِفِينَ بِالسَّلَامِ وَالْحُرِّيَّةِ، مُتَعَنِّينَ بِمَجْدِ «رُومَةَ»، وَخَلَّاصَهَا مِنْ نَيْرِ الظُّلْمِ وَالْإِسْتِبْدَادِ.

(٧) مَقْدَمُ «أَنْطُونْيُوسَ»

وَعَلِمَ «أَنْطُونْيُوسُ» بِمَصْرَعِ «قَيْصَرَ». فَأَقْبَلَ عَلَى دَارِ النِّيَابَةِ مُسْرِعًا، وَتَظَاهَرَ أَمَامَ «بُرُوتَسَ» وَأَصْحَابِهِ بِقَلَّةِ الْمُبَالَاتَةِ بِمَا حَدَثَ، وَأَثَبَتْ لَهُمْ أَنَّهُ مُجَدِّدٌ عُهْدَهُ وَمَوَائِقِيهِ مَعَهُمْ، إِذَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُفْنِعُوهُ بِصَوَابٍ مَا فَعَلُوهُ.

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَكَ عَلَيْنَا أَنْ نَشْرَحَ الْأَسْبَابَ الَّتِي حَفَزَتْنَا إِلَى الْفِتْكِ بِ«قَيْصَرَ». وَنَحْنُ وَاثِقُونَ أَنَّكَ سَتَرَى رَأْيَنَا؛ لِأَنَّ قُوَّةَ بُرْهَانِنَا، وَصِدْقَ حُجَّتِنَا: كَفِيلَانِ بِإِقْنَاعِ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَى «قَيْصَرَ» وَلَوْ كَانَ ابْنَهُ.»

وَنَظَرَ «أَنْطُونْيُوسُ»، فَرَأَى جُتَّةَ «قَيْصَرَ» هَامِدَةً مُضْرَجَةً (مُطَحَّةً) بِالِدَّمَاءِ؛ فَلَمْ يَتِمَّاكَ أَنْ يَحْزَنَ عَلَى صَدِيقِهِ الْحَمِيمِ، وَيُذْرِفَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهِ. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَدْرَكَ حَظَرَ الْمُوقِفِ؛ فَاسْتَعَصَمَ بِالْحَزْمِ وَالْجَلْدِ، وَالنَّفْتِ إِلَى «بُرُوتَسَ» وَرِفَاقِهِ، وَقَالَ: «إِذَا كُنْتُمْ حَاقِدِينَ عَلَيَّ؛ فَإِنِّي أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَتَرَوْوَا — مِنْ دَمِي — سُيُوفُكُمْ الَّتِي فَتَكَتْ بِ«قَيْصَرَ»!»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَسْنَا نَشُكُّ فِي إِخْلَاصِكَ لَنَا، يَا «أَنْطُونْيُوسُ». وَمَا نَحْنُ بِسَفَاحِينِ، وَلَا مُتَعَطِّشِينَ إِلَى الدَّمَاءِ. وَلَكِنَّا قَتَلْنَا «قَيْصَرَ» فِي سَبِيلِ الْوَطَنِ، مُنْتَصِرِينَ — بِذَلِكَ — لِلْحُرِّيَّةِ، وَلَمْ نَقْتُلْهُ لِبُغْضِ كَامِنٍ فِي نَفْسِنَا، أَوْ حِقْدٍ مُتَأَصِّلٍ فِي قُلُوبِنَا.»

(٨) حُطْبَةُ «بُرُوتَسَ»

فَقَالَ «أَنْطُونْيُوسُ»: «إِنِّي مُعَاهِدُكُمْ عَلَى الْوَفَاءِ؛ فَهَلْ تَأْذُنُونَ لِي أَنْ أَبْكِيَهُ، وَأَرْثِيَهُ، وَأُعَدِّدَ مَنَاقِبَهُ (أَذْكَرُ مَحَاسِنَهُ)؟ فَهُوَ صَدِيقٌ لَكُمْ وَلي عَلَى السَّوَاءِ.»

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «قُلْ فِيهِ مَا شِئْتِ، بَعْدَ أَنْ أُهْدِيَ الْجُمْهُورَ النَّائِرَ الصَّاحِبَ، وَأُسَكِّنَ مِنْ رُوعِهِ (قَلْبِهِ).»

وَأَنْتَحَى «كَسْيَاَسُ» بِصَاحِبِهِ «بُرُوتَسَ»، وَحَاوَلَ أَنْ يُثْنِيَ مِنْ عَزْمِهِ عَلَى مُسَالَمَةِ «أَنْطُونْيُوسَ»، وَيُحَدِّثَهُ الْإِنْخِدَاعَ بِمَا زَوَّرَهُ (زَيَّنَهُ) مِنْ زُخْرَفِ الْقَوْلِ (لِينِ الْكَلَامِ)؛ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُ «بُرُوتَسُ» قَوْلًا، وَأَثَبَتْ لَهُ أَنَّ «أَنْطُونْيُوسَ» لَنْ يُسِيءَ إِلَيْهِمْ فِي خِطَابِهِ. وَخَتَمَ

«بُرُوتْس» حواره قائلاً: «لَنْ يَجْرُوَ «أَنْطُونْيُوسُ» عَلَى اتِّهَامِنَا، وَلَنْ يَتَعَدَّى خِطَابُهُ رِثَاءَ «قَيْصَرَ»، وَتَعْدَادَ مَنَاقِبِهِ (التَّمْدِجُ بِخِلَالِهِ)، وَالتَّنَائِ عَلَى أَخْلَاقِهِ.»
 ثُمَّ افْتَرَقَ «بُرُوتْسُ» وَ«كَسْيَاسُ»، لِيَخْطُبَا سِوَاكَ الْجُمْهُورِ (عَامَّةً)، وَيُهْدِنَا خَوَاطِرَهُ
 النَّائِرَةَ.

وَاعْتَلَى «بُرُوتْسُ» مَنَصَّةَ الْخَطَابَةِ، فَصَاحَ فِي الْحَاضِرِينَ بِصَوْتِ جَهْوَرِيٍّ (عَالٍ)،
 وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

«لَقَدْ كَانَ «قَيْصَرُ» — كَمَا عَلِمْتُمْ — رَجُلًا عَظِيمًا، كَبِيرَ الْقَلْبِ، مَوْفُورَ الْحَظِّ،
 وَلَمْ يُحِبَّهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِمَّا أَحْبَبْتُهُ أَنَا. وَلَكِنَّ طَمَعَ «قَيْصَرَ» هُوَ الَّذِي
 أَحْفَظُنِي عَلَيْهِ وَأَغْضَبَنِي، وَبَدَّلَ حُبِّيهِ (مَحَبَّتِي لَهُ) كَرَاهِيَّةً وَمَقْتًا. لَقَدْ فَتَكُنَّا
 بِهِ لِأَنَّهُ كَانَ طَمَاعًا. لَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يَسْتَعْبِدَكُمْ — وَأَنْتُمْ أَحْرَارٌ — فَتَرْنَا — فِي
 وَجْهِهِ — انْتِصَارًا لِحُرِّيَّتِكُمْ، وَقَتْلَانَهُ لِنُنْقِذَكُمْ مِنْ نَيْرِ الطُّغْيَانِ، وَنُخَلِّصَكُمْ مِنْ
 بَرَاثِنِ الظُّلْمِ (أَصَابِعِهِ). فَهَلْ أَتَمْنَا فِيمَا فَعَلْنَا؟ إِنْ كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ بِهِ
 الْعُقُوقُ لَوْطِنِهِ، وَالِاسْتِهَانَةُ بِحُرِّيَّتِهِ، حَدَّ السُّخْطِ عَلَى مَحَارِبَةِ الْإِسْتِعْبَادِ وَالذُّلِّ؛
 فَلْيَكْشِفْنَا بِرَأْيِهِ، وَلْيَتَكَلَّمْ أَمَامَنَا، وَلْيُنهِمْنَا بِأَنَّنَا قَدْ أَسَأْنَا فِيمَا فَعَلْنَا.»

فَصَفَّقَ الْجُمْهُورُ لِلْخَطِيبِ الْبَارِعِ الْمَفُوهِ: «بُرُوتْس»، وَأَعْجَبُوا بِفَصَاحَتِهِ وَقُوَّةِ
 حُجَّتِهِ، وَتَعَالَى هَتَافُ الْحَاضِرِينَ بِحَيَاتِهِ.

(٩) خُطْبَةُ «أَنْطُونْيُوسِ»

وَظَهَرَ «أَنْطُونْيُوسُ» — حِينئِذٍ — وَهُوَ يَحْمِلُ جُنَّةَ «قَيْصَرَ».
 فَأَشَارَ «بُرُوتْسُ» إِلَى الْحَاضِرِينَ أَنْ يَكْفُوا عَنْ هَتَافِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «الْبُتُؤَا (ابْقُوا) فِي
 أَمَاكِنِكُمْ، لِتَسْمَعُوا رِثَاءَ «أَنْطُونْيُوسِ» لِصَاحِبِهِ، فَقَدْ أَدْنَا لَهُ فِي ذَلِكَ.»
 ثُمَّ خَرَجَ «بُرُوتْسُ»، وَتَرَكَ خَصْمَهُ «أَنْطُونْيُوسُ» يَخْطُبُ الْجُمْهُورَ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّهُ
 سَيُلْهَبُ نَارَ نَوْرَتِهِ، وَيَذْكَي ضَرَامَ حِقْدِهِ.



وَمَا ارْتَقَى «أَنْطُونْيُوسُ» الْمِنْبَرَ حَتَّى قَالَ:

«أَصْدِقَائِي وَأَصْحَابِي أَبْنَاءَ «رُومَةَ»: أَعِيرُونِي أَسْمَاعَكُمْ؛ فَقَدْ جِئْتُ لِأَحْتَفَلَ بِدَفْنِ «قَيْصَرَ»، وَلَمْ أَجِئْ لِأَمْتَدِّحَ فِعَالَهُ، وَأَثْنِي عَلَى مَزَايَاهُ؛ فَإِنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ — وَحْدَهُ — أَحْسَنُ ثَنَاءٍ يُخَلَّدُهُ، وَيَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ، إِنْ كَانَ صَالِحًا. لَقَدْ حَدَّثْتُكُمْ «بُرُوتَسُ» أَنَّ «قَيْصَرَ» كَانَ طَمَّاعًا، وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ. فَإِذَا صَحَّ مَا يَقُولُ «بُرُوتَسُ»؛ فَقَدْ لَقِيَ «قَيْصَرَ» جَزَاءَهُ الْعَادِلَ، وَاسْتَحَقَّ الْمَوْتَ، بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ مِنْ شُرُورٍ وَأَثَامٍ.

لَقَدْ أَدْنَى لِي «بُرُوتَسُ» فِي أَنْ أَرْتَبِي «قَيْصَرَ»، وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ. وَقَدْ كَانَ «قَيْصَرَ» نِعَمَ الصَّدِيقِ الْوَفِيِّ الْعَادِلِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنَّ «بُرُوتَسُ» يَقُولُ: «إِنَّ «قَيْصَرَ» رَجُلٌ طَمَّاعٌ.» وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ!

لَقَدْ كَانَ «قَيْصَرُ» يُعِدُّ عَلَيْكُمْ الْمَالَ (يُفِيضُهُ بِلَا حِسَابٍ)، وَيَبْكِي رَحْمَةً بِالْفَقِيرِ، وَيُؤَسِّي الضَّعِيفَ. فَهَلْ تَعُدُّونَ مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ طَمَاعًا؟ وَلَكِنَّ «بُرُوتَسَ» يَقُولُ: «إِنَّ «قَيْصَرَ» كَانَ طَمَاعًا.» وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ! لَقَدْ قَدَّمْتُ التَّاجَ لـ«قَيْصَرَ» — مَرَّاتٍ ثَلَاثًا — فَرَفَضَهُ «قَيْصَرُ»، وَلَمْ يَقْبَلْهُ. فَهَلْ كَانَ «قَيْصَرُ» طَمَاعًا؟ وَلَكِنَّ «بُرُوتَسَ» يَقُولُ: «إِنَّ «قَيْصَرَ» كَانَ طَمَاعًا.» وَ«بُرُوتَسُ» رَجُلٌ شَرِيفٌ! لَسْتُ أَكْذِبُ «بُرُوتَسَ» فِيمَا يَقُولُ، وَلَكِنِّي أَكْتَفِي بِتَقْرِيرِ مَا أَعْرِفُهُ — وَتَعْرِفُونَهُ — عَن «قَيْصَرَ»:

لَقَدْ أَحْبَبْتُمْ «قَيْصَرَ» — كَمَا أَحَبَّكُمْ — فَلِمَاذَا أَحْبَبْتُمُوهُ، وَأَخْلَصْتُمْ لَهُ، وَهْتَفْتُمْ بِاسْمِهِ؟ وَكَيْفَ لَا تَبْكُونَ الْيَوْمَ مَصْرَعَ مَنْ أَحْبَبْتُمُوهُ وَأَحْبَبَّكُمْ؟ هَا هِيَ ذِي وَصِيَّةٍ «قَيْصَرَ»، الَّتِي أَوْدَعَهَا حُبًّا وَإِخْلَاصًا لَكُمْ؛ فَاهِ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا تَحْوِيهِ! إِذَنْ لَمَرَقَ الْأَسَى قُلُوبَكُمْ، وَقَطَعَ الْحُزْنَ أَفْنِدَتَكُمْ!...

(١٠) وَصِيَّةُ «قَيْصَرَ»

وَمَا وَصَلَ «أَنْطُونْيُوسُ» إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنْ حُطْبَتِهِ، حَتَّى تَهْدَجَ صَوْتُهُ (ضَعْفَ وَازْتَعَشَ)، وَبَكَى؛ فَاسْتَبَكِيَ سَامِعِيهِ، وَصَاحُوا جَمِيعًا، يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ». فَقَالَ «أَنْطُونْيُوسُ»: «كَلَّا، لَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا، فَإِنِّي أَشْفِقُ (أَخَافُ) عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْقَطَعَ قُلُوبُكُمْ حُزْنًا، وَتَدُوبَ أَكْبَادِكُمْ أَسَى، مَتَى سَمِعْتُمْ وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!» فَصَاحَ بِهِ الْحَاضِرُونَ هَانِفِينَ: «الْوَصِيَّةُ! الْوَصِيَّةُ! لَا بَدَّ أَنْ تُسْمِعَنَا وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!» فَقَالَ «أَنْطُونْيُوسُ»: «إِذَا سَمِعْتُمْ أَنْ تَسْمَعُوا مِنِّي وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ» فَتَعَالَوْا — أَيُّهَا الْإِحْوَانُ — وَالتَّقُوا حَوْلَ جُثَّةِ عَظِيمِنَا الرَّاجِلِ، لِأَرِيكُمْ مَاذَا فَعَلَ أَصْحَابُ «قَيْصَرَ»: صَاحِبُ الْوَصِيَّةِ.»

ثُمَّ تَرَكَ «أَنْطُونْيُوسُ» الْمِنَصَّةَ، وَرَفَعَ عِبَاءَهُ «قَيْصَرَ» الَّتِي ارْتَدَاهَا يَوْمَ انْتِصَارِهِ الْمَجِيدِ، ثُمَّ قَالَ: «لَيْسَ لِي مِثْلُ فَصَاحَةِ «بُرُوتَسَ» وَلَبَاقَتِهِ، وَظَرْفِهِ وَفُطْنَتِهِ. وَلَكِنَّ حَسْبِي أَنْ أَنْهِيَ إِلَيْكُمْ فَصَلَ الْخُطَابِ (الْقَوْلَ الْحَاسِمَ)، حِينَ أَرِيكُمْ جِرَاحَ «قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ، الَّذِي أَخْلَصَ لَكُمْ الْإِخْلَاصَ كُلَّهُ، وَمَحَضَّكُمْ (أَصْفَى لَكُمْ) الْحُبَّ وَالْوَلَاءَ. فَإِنَّ هَذِهِ الْجِرَاحَ وَحَدَّهَا لَتَنْطِقُ بِأَبْلَغِ لِسَانٍ، فَتَثِيرُ شَكْوَاهَا صَمَّ الْجَمَادِ، وَتَحْرُكُ أَحْجَارَ «رُومَةَ» جَمِيعًا.»

انظُرُوا إِلَى هَذَا الْجُرْحِ الدَّامِي، تَرَوْا طَعْنَةَ «كَسْكَا»، وَتَرَوْا إِلَى جَانِبِهَا طَعْنَةَ «بُرُوتَسَ»: الصَّدِيقِ الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِ «قَيْصَرَ»، وَالصَّفِيِّ الْوَفِيِّ الَّذِي اخْتَارَهُ «قَيْصَرُ»! وَهَا هِيَ ذِي طَعْنَةَ الطَّعَنَاتِ الَّتِي مَزَقَتْ قَلْبَهُ الشُّجَاعَ!»

وَمَا بَلَغَ «أَنْطُونْيُوسُ» هَذَا الْحَدَّ مِنْ خُطْبَتِهِ، حَتَّى ثَارَ الشَّعْبُ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْغَضَبُ، وَغَمَرَتْهُ مَوْجَةٌ مِنَ الْحَنَقِ وَالْغَيْظِ. فَصَاحَ الْجَمْعُ مُهْتَاجِينَ: «الْوَيْلُ! لـ«بُرُوتَسَ» وَرِفَاقِهِ. أَمَا وَاللَّهِ لَنَزَلْنَ دَارَهُ، وَلَنَحْرَقَنَّ أَصْحَابَهُ الْغَادِرِينَ!»

فَقَالَ «أَنْطُونْيُوسُ»: «أَنَاةٌ وَمَهْلًا — يَا بَنِي وَطَنِي — وَصَبْرًا، فَإِنَّكُمْ لَمَّا تَسْمَعُوا وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!»

فَصَاحُوا: «الْوَصِيَّةُ! الْوَصِيَّةُ! صَدَقْتَ — أَيُّهَا النَّبِيلُ — فَاتْلُ عَلَيْنَا وَصِيَّةَ «قَيْصَرَ»!»
فَقَالَ «أَنْطُونْيُوسُ»: «هَأَكُمُ أَقْرَأُوا وَصِيَّتَهُ، وَعَلَيْهَا خَاتَمُهُ، وَانظُرُوا مَا تَحْوِيهِ. اسْمَعُوا مَا كَتَبَهُ لَكُمْ. لَقَدْ وَهَبَ لَكُمْ — فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ — كُلَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ مَالٍ، وَأَوْرَثَكُمْ فِيهَا كُلَّ مَا فِي حَوْزَتِهِ مِنْ حَدَائِقَ وَمُتَنَزَّهَاتٍ! هَذَا هُوَ «قَيْصَرُ» الَّذِي غَدَرُوا بِهِ؛ فَهَلْ يَجُودُ الزَّمَنُ بِمِثْلِهِ؟»

فَصَاحُوا مَحْزُونِينَ: «كَلَّا، كَلَّا! فَإِنَّ الدَّهْرَ بِمِثْلِهِ لَضَنِينٌ (بَخِيلٌ)!»

(١١) مَقْدَمُ «أُكْتَفْيُوسُ»

وَهَكَذَا أَفْلَحَ «أَنْطُونْيُوسُ» فِي إِثَارَةِ الْجُمْهُورِ، وَإِلْهَابِ نَارِ التُّورَةِ؛ لِيُصَلِّيَ (لِيُحْرِقَ) بِهَا أَعْدَاءَ «قَيْصَرَ». فَانْدَفَعَ سِوَادُ الرُّومَانِيِّينَ (عَامَّتُهُمْ)؛ لِيَفْتِكُوا بِقَاتِلِي «قَيْصَرَ» وَأَنْصَارِهِمْ. وَثَمَّةَ ارْتِاحٍ «أَنْطُونْيُوسُ»، وَتَنَفُّسِ الصُّعْدَاءِ (وَالصُّعْدَاءُ: التَّنَفُّسِ الطَّوِيلُ مِنْ هَمٍّ أَوْ تَعَبٍ)، وَدَفِّ اطمَآنَ قَلْبِهِ، بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ مَا يَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ تَأَلُّبِ الْجُمْهُورِ عَلَى خُصُومِهِ وَأَعْدَائِهِ.

وَسُرَّعَانَ مَا وُلَّى «بُرُوتَسَ» وَ«كَسْيَاسُ» فِرَارًا مِنَ الثَّائِرِينَ، وَخَرَجَا مِنَ الْمَدِينَةِ هَائِمِينَ عَلَى وَجْهَيْهِمَا (سَائِرِينَ عَلَى غَيْرِ هُدًى، لَا يَعْلَمَانِ لَهْمَا وَجْهَةً).

وَبَعْدَ قَلِيلٍ، عَلِمَ «أَنْطُونْيُوسُ» بِمَقْدَمِ صَدِيقِهِ «أُكْتَفْيُوسُ» إِلَى «رُومَةَ»؛ فَأَيَّقَنَ — حِينئِذٍ — بِالِانْتِصَارِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَقْدَمِ «أُكْتَفْيُوسُ» فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الْحَرِجَةِ (الْخَطِيرَةِ)؛ لِتَمَّتْ عَلَى يَدَيْهِمَا هَزِيمَةُ الْقَتَلَةِ الْغَادِرِينَ.

الفصل الرابع

(١) لِقَاءُ الصِّدِّيقَيْنِ

لَمْ يُضِعْ «أَنْطُونْيُوسُ» شَيْئًا مِنْ وَقْتِهِ سُدَى (بِلَا فَايْدَةٍ)، بَلْ أَسْرَعَ إِلَى لِقَاءِ صَدِيقِهِ «أَكْتَفْيُوسَ»، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا حَدَّثَ فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِهِ عَنْ «رُومَةَ». وَدَارَ بَيْنَهُمَا حِوَارٌ طَوِيلٌ، ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيَاهُمَا عَلَى أَنْ يُسْرِعَا إِلَى حَشْدِ جَيْشٍ عَظِيمٍ — مِنْ أَنْصَارِهِمَا — لِمُهَاجِمَةِ «بُرُوتَسَ» وَ«كَسْيَاسَ» اللَّذَيْنِ نَشِطًا إِلَى النَّضَالِ، وَأَسْرَعَا إِلَى الْقِتَالِ، وَجَمَعَا حَوْلَهُمَا جَيْشًا كَبِيرًا، وَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا (لَمْ يَقْصُرَا) فِي جَمْعِ أُلُوفٍ مُؤَلَّفَةٍ — مِنْ الْجُنُودِ — لِعَزْوِ أَصْحَابِ «قَيْصَرَ»، وَالْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ مَنْ تَحَدَّثَهُ نَفْسُهُ بِالِانْتِصَارِ لِعَظِيمِ «رُومَةَ» الرَّاجِلِ.

فَأَقْرَهُ «أَكْتَفْيُوسُ» عَلَى رَأْيِهِ، وَأَعَدَّ عُدَّتَهُ، وَجَمَعَ جَيْشَهُ، وَسَارُوا مُجِدِّينَ؛ لِيَنْكَلُوا بِالْغَادِرِينَ، وَيَتَأَرَّوْا لِ «قَيْصَرَ» (يَنْتَقِمُوا لَهُ) مِنْ قَاتِلِيهِ.

(٢) بَيْنَ «بُرُوتَسَ» وَ«كَسْيَاسَ»

وَنَشَبَ خِلَافٌ (تَارَ وَاشْتَبَكَ) بَيْنَ «كَسْيَاسَ» وَ«بُرُوتَسَ»، فَكَادَتْ تَذْهَبُ رِيحُهُمَا (كَادَا يُفْنِيَانِ)، وَأَوْشَكَ الْخِلَافُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْعَصِيبِ (الشَّدِيدِ). وَكَانَ مَبْعَثُ هَذَا الْخِلَافِ أَنَّ «بُرُوتَسَ» قَدْ أَصَرَ عَلَى مُعَاقَبَةِ أَحَدِ أَنْصَارِ «كَسْيَاسَ» لِإِعْوَجَاجِ سَيْرِهِ، وَقَبُولِهِ الرِّشْوَةِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ «كَسْيَاسُ» مُتَشَفِّعًا فِيهِ؛ فَلَمْ يَقْبَلِ «بُرُوتَسُ» شَفَاعَتَهُ. فَاسْرَهَا

«كَسْيَاسُ» فِي نَفْسِهِ، وَقَبَضَ يَدَهُ عَنِ إِمْدَادِ «بُرُوتَسَ» بِالْمَالِ. فَلَمَّا اتَّقَى الصِّدِيقَانِ، بَدَأَ «كَسْيَاسُ» صَدِيقَهُ «بُرُوتَسَ» بِالْعِتَابِ لِرَفْضِ شَفَاعَتِهِ.

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «مَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تُبْعَدَ نَفْسَكَ عَنِ مَوَاطِنِ الرَّيْبِ (أَمَاكِنِ التُّهْمِ)، فَلَا تُعَرِّضَهَا لِلشَّفَاعَةِ فِي مِثْلِ هَذَا الْأَيْمِ الْمُرْتَشِي!»

فَقَالَ لَهُ «كَسْيَاسُ»: «مَا كَانَ أَجْدَرَكَ أَنْ تَتَعَاضَى (تَتَسَمَّحَ) عَنِ الْمُحَاسِبَةِ عَلَى الصَّغَائِرِ، وَالْعِقَابِ عَلَى الْهَنَوَاتِ (الذُّنُوبِ الْيَسِيرَةِ) فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْعَصِيبَةِ!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «إِنَّ مِثْلِي خَلِيقٌ بَأَنَّ يَزْنَ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (الْمِيزَانَ الْعَادِلِ)، وَأَنْ يُعَاقَبَ الْمُسِيءَ عَلَى إِسَاءَتِهِ، وَيَجْزَى الْمُحْسِنَ عَلَى إِحْسَانِهِ. وَلَكِنَّكَ تَتَعَاضَى عَنِ أَمْثَالِ هَذِهِ الزَّلَّاتِ (السَّقَطَاتِ وَالْغَلَطَاتِ) لِأَنَّكَ مُلَوِّثُ الْيَدِ، مُتَهَمٌ بِإِسْنَادِ الْمَنَاصِبِ الرَّفِيعَةِ إِلَى غَيْرِ الْأَكْفَاءِ الْمُسْتَحِقِّينَ، طَمَعًا فِي مَالِهِمْ، وَاسْتِجْلَابًا لِرِفْدِهِمْ (طَلَبًا لِمَا يُعْطُونَهُ إِيَّاكَ مِنَ الْعَطَايَا)».

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «الْمِثْلِي يُقَالُ هَذَا الْكَلَامُ؟ أَتَقْبَلُ فِي نَزَاهَتِي مَطْعَنًا؟ أَمَا — وَاللَّهِ — لَوْ قَالَهَا غَيْرُكَ لَكَانَ لِي مَعَهُ شَأْنٌ آخَرُ، وَلَكَانَتْ آخِرُ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ (فَمِهِ)!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «أَمَا — وَاللَّهِ — لَوْ غَيْرُ «كَسْيَاسِ» أَفْتَرَفَ (ارْتَكَبَ) مِثْلَ هَذَا الْإِيْمِ، لَأَسْتَحَقَّ مِنِّي أَعْدَلَ الْقِصَاصِ (الْجَزَاءِ وَالْعُقُوبَةِ)».

فَصَاحَ «كَسْيَاسُ»: «هَلْ بَلَغَ الْأَمْرُ حَدَّ الْقِصَاصِ؟»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «أَنْسَيْتَ مُنْتَصَفَ مَارَسَ؟ خَبْرِي: فِي أَيِّ سَبِيلٍ قَتَلْنَا «قَيْصَرَ»؟ أَلَيْسَ فِي سَبِيلِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ قَتَلْنَاهُ؟ فَكَيْفَ نَغْتَالُ سَيِّدَ «رُومَةَ» وَنَفْتِكُ بِهِ، مِنْ أَجْلِ ذَنْبٍ نَعْفَرُهُ لِمِثْلِكَ وَلِمِثْلِ قَوَادِكِ الْمُرْتَشِينَ؟ قُلْ لِي: كَيْفَ أَتَعَاضَى عَنِ اللُّصُوصِ، وَأَصْفَحُ عَنِ الْأَثْمَةِ، وَأَخُونُ وَطَنِي، وَأَخْفِرُ عَهْدِي (أَنْقُضُهُ)، وَأَعُقُّ ضَمِيرِي؟ خَبْرِي: كَيْفَ أَقْبَلُ شَفَاعَتَكَ فِي مُجْرِمٍ أَثِيمٍ؟ إِنِّي لَأَوْثِرُ أَنْ أُمْسَخَ كَلْبًا عَلَى أَنْ أَكُونَ رُومَانِيًّا أَثِمًّا!»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «أَلَا لَا تَحَاوِلَنَّ أَنْ تَأْخُذَنِي بِمِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ الْخَادِعَةِ، وَتَسْحَرَنِي بِتِلْكَ الْأَسَالِيبِ الْخَلَابَةِ! فَإِنِّي لَنْ أَحْتِمَلَ مِنْكَ هَذِهِ الْإِهَانَةَ، وَلَنْ أَصْبِرَ عَلَى تَطَاوُلِكَ بَعْدَ الْأَنْ! أَنْسَيْتَ أَنَّيْ أَقْدَمَ مِنْكَ عَهْدًا بِالْجُنْدِيَّةِ، وَأَوْفَرَ مِنْكَ تَجْرِبَةً؟ فَكَيْفَ تُلْصِقُ بِي مِثْلَ هَذِهِ الشُّنَعِ (الْفَضَائِحِ)؟»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «أَقْصِرْ (كُفَّ عَنِ الْكَلَامِ)، فَمَا أَنْتَ بِذَاكَ!»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «حَذَارِ أَنْ تَمْتَحِنَ صَبْرِي، يَا «بُرُوتْسُ»؛ فَمَا أَنَا بِغَافِرٍ لَكَ إِسَاءَةً
بَعْدَ هَذِهِ. وَمَا أَجْدَرُكَ أَنْ تُؤْتِرَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ!»
فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «مَا أَحْقَرَ وَعَيْدِكَ، وَمَا أَعْجَزَكَ عَنْ تَحْقِيقِ هَذَا الْهَدْيَانِ!»

(٣) حِوَارُ صَاحِبِ

وَهُنَا نَارَ «كَسْيَاسُ»، وَأَشَدَّ غَيْظُهُ، وَنَشَبَتْ مَلَاخَاةً (نَارَتْ مُشَاتِمَةً) صَاحِبَةً بَيْنَ
الصَّدِيقَيْنِ. فَقَالَ «كَسْيَاسُ» مُهْتَابًا: «كَيْفَ اجْتَرَأْتَ عَلَيَّ، وَزَيَّنَ لَكَ الْغُرُورُ أَنْ تَرْكَبَ
هَذَا الْمُرْكَبَ الْوَعَرَ (الصَّعْبَ)؟ إِنِّي لَا أَكَادُ أُصَدِّقُ مَا تَسْمَعُهُ أُذُنَايَا!»
فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «حَذُّهَا كَلِمَةً حَاسِمَةً: أَتَرَانِي أَفْرَقَ (أَتَظَنُّنِي أَخَافَ) وَأَجْرَعُ لِصَحْبِ
أَحْمَقٍ، أَوْ هَدْيَانِ مَجْنُونٍ؟»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «يَا لِلَّهِ! كَيْفَ أَحْتَمِلُ هَذِهِ الْجُرْأَةَ؟»
فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «مَا أَجْدَرُكَ أَنْ تَسْمَعَ أضعَافَ مَا سَمِعْتَ، حَتَّى تَنْشَقَّ مَرَارَتُكَ
غَيْظًا، وَيَنْفَطِرَ قَلْبُكَ حُزْنًا! وَمَا أَدْرِي: كَيْفَ سَوَّلْتَ (زَيَّنْتَ) لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَفَاخِرَنِي
وَتُكَاثِرَنِي مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخْشَى عَاقِبَةَ هَذَا الطَّيِّسِ؟ أَلَمْ يَكُنْ أَحَجَى (أَجْدَرَ وَأَوْلَى) بِكَ،
وَأَهْدَى لَكَ: أَنْ تَزْعَدَ وَتَثُورَ عَلَى خَدَمِكَ وَأَرْقَاتِكَ؟ إِنَّكَ — لَوْ فَعَلْتَ — لَرَأَيْتَ فَرَائِصَهُمْ
تَرْتَعِدُ، خَوْفَ تَهْدِيدِكَ، وَرَهْبَةَ وَعَيْدِكَ (وَالْفَرَائِصُ: هِيَ مَا بَيْنَ الْجُنُوبِ وَالْأَكْتِافِ). أَمَّا أَنَا
فَلَأَتَّخِذَنَّكَ — مِنْذُ الْآنَ — ضُحْكَةً (وَهُوَ مَا يُضْحَكُ مِنْهُ)، وَلَا لَهْوَنًا بِكَ مَا حَيَّيْتُ؛ لِأَتَفَكَّهُ
بِغَضَبِكَ، وَأُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِي بِإِيلَامِكَ وَتَنْغِيصِ عَيْشِكَ!»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَرَاكَ إِلَّا مُتَمَادِيًا فِي الْإِسَاءَةِ!»
فَقَالَ «بُرُوتْسُ»: «لَقَدْ فَاحَرَّتَنِي بِأَنَّكَ أَجْلُدُ مِنِّي عَلَى الْقِتَالِ وَأَقْوَى، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ
أَخْبَرُ بِالْحَرْبِ وَأَدْرَى؛ فَهَلَّا حَقَّقْتَ مَا زَعَمْتَ وَأَرَيْتَنِي كَيْفَ بَصْرُكَ بِالْعِرَاكِ، وَمَعْرِفَتُكَ
بِالْمُحَارَبَةِ؟»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَكْثَرَ مَا تَتَجَنَّى عَلَيَّ، يَا «بُرُوتْسُ» (مَا أَكْثَرَ مَا تَنْسِبُهُ إِلَيَّ مِمَّا
لَمْ يَقَعْ مِنِّي)! فَقَدْ قُلْتَ لَكَ: إِنِّي أَقْدَمُ عَهْدًا، وَأَوْفَرُ تَجْرِبَةً، وَلَمْ أَقُلْ: إِنِّي أَشْجَعُ مِنْكَ
وَأَقْدَرُ.»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «لَوْ قُلْتَهَا لَمَا أَبْهَتْ لَكَ (لَمَا اهْتَمَمْتُ بِكَ)، وَلَا أَقَمْتُ لِمَا تَقُولُ وَزَنًا»، فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «إِنَّ قَيْصَرَ نَفْسَهُ مَا كَانَ لِيَجْتَرِيَّ عَلَيَّ — فِي حَيَاتِهِ — فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلْتَ!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «هُوَ عَلَيَّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تَكُنْ لَتَجْرُوَ عَلَى اسْتِنَارَةِ «قَيْصَرَ» وَإِعْضَابِهِ، وَلَوْ عَرَضَ حَيَاتِكَ لِلتَّلْفِ.»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «إِنَّ لِكُلِّ بَدَايَةٍ نِهَآيَةً، وَإِنَّ لِلْحِلْمِ غَايَةً لَا سَبِيلَ إِلَى تَجَاوُزِهَا. وَمَا أَحْوَفَنِي أَنْ أُقَدِّمَ عَلَى أَمْرٍ جَلِيلٍ (عَظِيمٍ خَطِيرٍ) أَنْدُمَ عَلَيْهِ بَعْدًا!»

فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «لَا عَلَيَّ (لَا ضَيْرٌ وَلَا خَوْفٌ مِنْ وَعِيدِكَ)، فَإِنِّي — بِمَا لِي مِنَ الشَّرَفِ وَالزَّهَاهِ — لَفِي حِصْنٍ حَصِينٍ، وَلَنْ يَبْلُغَ وَعِيدُكَ مِنِّي إِلَّا مَا تَبْلُغُ الرِّيحُ مِنْ ذِرْوَةِ الْجَبَلِ! أَتَذْكُرُ كَيْفَ ضَنَنْتَ عَلَيَّ بِالْمَالِ أَنْفَقَهُ عَلَى جَيْشِي؟»

فَقَالَ «كَسْيَاسُ»: «مَا أَذْكَرُ أَنَّنِي ضَنَنْتُ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ مِمَّا تَطْلُبُ، وَلَكِنَّهَا حَمَاقَةُ الرَّسُولِ، وَأَفْنُ رَأْيِهِ (سُوءُ تَدْبِيرِهِ). وَمَا كَانَ أَجْدَرَكَ — إِنْ كُنْتَ صَادِقًا — أَنْ تَغْفِرَ لِصَدِيقِكَ هَنَوَاتِهِ، وَتَتَجَاوَزَ عَنْ إِسَاءَاتِهِ؛ فَإِنَّ عَيْنَ الْحُبِّ عَمِيَاءُ، لَا تَنْظُرُ إِلَى الْمَسَاوِي وَالْعُيُوبِ.» فَقَالَ «بُرُوتَسُ»: «إِنَّ عَيْنَ الرِّيَاءِ وَالنَّفَاقِ هِيَ — وَحْدَهَا — الَّتِي نَعْمَى عَنِ الْغَلَطِ، وَلَا تَرَى الْعُيُوبَ، وَلَوْ عَظُمَتْ حَتَّى أَصْبَحَتْ مِثْلَ الْجَبَلِ.»

(٤) صَلُحُ الصَّدِيقَيْنِ

فَقَالَ «كَسْيَاسُ» مُتَأَلِّمًا: «هَلُمَّ يَا «أَنْطُونْيُوسُ» وَيَا «أَكْتَفْيُوسُ»، وَتَعَالَيَا إِلَى «كَسْيَاسِ»، فَاقْتُلَاهُ، وَأَزْهِقَا رُوحَهُ؛ فَقَدْ مَلَّ الْبِقَاءَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، بَعْدَ أَنْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ قَلْبُ صَفِيهِ الْحَبِيبِ «بُرُوتَسِ»، وَتَنَكَّرَ لَهُ أَوْفَى النَّاسِ، وَأَبْرَهُمْ بِهِ.

أَلَا لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ — بَعْدَ أَنْ فَسَدَ مَا بَيْنَنَا مِنْ حُبٍّ وَإِخْلَاصٍ. فَهَآكَ خَنْجَرِي، فَأَعْمِدْهُ فِي قَلْبِي، وَأَرِحْنِي مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ!»

فَهَشَّ لَهُ «بُرُوتَسُ» وَبَشَّ، وَقَالَ لَهُ: «أَعْمِدْ خَنْجَرَكَ — أَيُّهَا الصَّدِيقُ — فَإِنِّي مُتَجَاوِزٌ لَكَ عَنْ كُلِّ مَا حَدَثَ، وَمُعْتَذِرٌ لَكَ مِنْ كُلِّ إِسَاءَةٍ بَدَرْتَ مِنِّي. وَلَتَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ قَلْبِي لَا يَحْمِلُ جِدًّا وَلَا ضِعْفًا؛ فَهُوَ كَالرِّزْدِ: إِذَا أُورِيَتْهُ (قَدَحَتْ بِهِ لِتَخْرُجَ نَارُهُ) أُرْسَلَ شَرَارَةٌ ضَّئِيلَةٌ الْخَطَرِ (حَقِيرَةٌ الشَّانِ)، ذَاهِبَةٌ فِي الْهُوَاءِ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ الرِّزْدُ أَنْ يَعُودَ كَمَا كَانَ.»

وَهَكَذَا تَصَافَحَ الصِّدِّيقَانِ، وَعَادَ إِلَى قَلْبَيْهِمَا الصَّفَاءُ، وَشَدَّ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى يَدِ الْآخَرِ، مُجَدِّدِينَ الْعَهْدَ عَلَى الْوَفَاءِ.

وَقَدْ حَزَنَ «كَسْيَاسُ» حِينَ أَخْبَرَهُ «بُرُوتَسُ» أَنَّ مَبْعَثَ الْأَمَةِ وَحَنَقِهِ عَلَيْهِ، مَا بَلَغَهُ عَنْ مَصْرَعِ زَوْجِهِ «بُرْشَا». فَقَدْ عَلِمَ — فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ — أَنَّ غِيَابَهُ قَدْ أَضْنَى جِسْمَهَا، وَأَذْهَلَهَا مَا رَأَتْهُ مِنْ تَأَلُّبِ أَعْدَائِهِ، وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَيْهِ؛ فَقَتَلَتْ نَفْسَهَا إِشْفَاقًا عَلَى «بُرُوتَسِ»، حَتَّى لَا تَرَى — بَعِيْنَيْهَا — مَصْرَعَهُ الْوَشِيكَ.

فَشَارَكَهُ «كَسْيَاسُ» فِي حُزْنِهِ، وَأَسَاهُ فِي مُصَابِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «لَمْ يَبْنِقْ أَمَامَنَا إِلَّا الْجِدُّ وَالْإِقْدَامُ، حَتَّى لَا يَدْهَمَنَا الْأَعْدَاءُ.»

ثُمَّ وَدَّعَ كُلُّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، عَلَى أَنْ يَلْتَقِيَا فِي الْعَدِّ.

(٥) طَيْفُ «قَيْصَرِ»

وَقَضَى «بُرُوتَسُ» لَيْلَةً مُفْزَعَةً، مُسْتَسْلِمًا لِأَشْجَانِهِ، وَهَمُومِهِ وَأَحْزَانِهِ. وَإِنَّهُ لَعَارِقٌ فِي وَسَاوِسِهِ يُقَلِّبُ بَعْضَ أَوْرَاقِهِ، إِذْ لَاحَ أَمَامَهُ شَبْحُ «قَيْصَرِ» فِي هَيْئَةِ مُزْعِجَةٍ؛ فَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ، وَتَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ مِمَّا رَأَى، وَصَاحَ فِيهِ مَدْعُورًا: «أَيُّ طَيْفٍ أَنْتَ؟ فَقَدْ أَزْعَجْتَنِي، وَكَادَ يَجْمُدُ الدَّمُ فِي عُرُوقِي لِرُؤْيَيْكَ.»



فَقَالَ لَهُ الطَّيْفُ: «لَسْتُ إِلَّا رُوحَكَ الْخَبِيثَةَ، يَا «بُرُوتَسُ»!»

فَقَالَ لَهُ وَجِلًّا: «فَمَا بِأُكَ تَزُورُنِي الْآنَ؟»

فَقَالَ لَهُ طَيْفٌ «قَيْصَرَ»: «إِنَّمَا زُرْتِكَ لِأُخْبِرَكَ بِأَنَّ لِقَاءَنَا وَشَيْكَ (قَرِيبٌ)».

ثُمَّ اسْتَحْفَى شَبِيحُ «قَيْصَرَ» عَنْ نَاطِرِهِ. فَصَاحَ «بُرُوتَسُ» فَزِعًا رَاهِبًا؛ فَانْتَبَهَ خَادِمُهُ

مَدْعُورًا مَرْعُوبًا، وَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ صِيَاحِهِ.

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَسْتُ أَذْكَرُ أَنَّي صِحْتُ، وَلَعَلَّكَ حَالِمٌ فِي هَذَا؛ فَخَبِّرْنِي: هَلْ

أَبْصَرْتَ فِي مَنَامِكَ طَيْفًا؟»

فَقَالَ لَهُ خَادِمُهُ: «كَلَّا يَا سَيِّدِي، مَا رَأَيْتُ شَيْئًا».

فَقَالَ لَهُ «بُرُوتَسُ»: «لَا عَلَيَّكَ، فَادْهَبِ الْآنَ إِلَى «كَسْيَاسَ»، وَاطْلُبْ إِلَيْهِ أَنْ يُبَكِّرَ فِي

زَحْفِهِ، صَبَّاحَ الْعَدِ، لِأَنَّي قَدْ اعْتَزَمْتُ مُهَاجِمَةَ الْأَعْدَاءِ فِي إِثْرِهِ، وَإِنَّا عَلَيْهِمْ لَمُنْتَصِرُونَ!»

خَاتَمَةُ الْقِصَّةِ

(١) قُبَيْلُ الْمَعْرَكَةِ

التَقَى الْجَيْشَانِ فِي سُهُولِ «فَيْلَيْي»، وَتَحَفَّزَ الْجَمْعَانِ لِلِاسْتِبَاكِ فِي الْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الْعَدُوِّ قَضَاءً مُبْرَمًا، لَا تَقُومُ لَهُ قَائِمَةٌ مِنْ بَعْدِهِ. وَتَشَاوَرَ «أَنْطُنْيُوسُ» وَ«أُكْتَفْيُوسُ» فِي خُطَّةِ الْحَرْبِ مَلِيًّا، ثُمَّ قَرَّ رَأْيُهُمَا عَلَى أَنْ يَنْحَازَ أَحَدُهُمَا (يَرْتُدُّ وَيَمِيلُ) إِلَى يَمِينِ السَّهْلِ، وَيَذْهَبَ الْآخَرُ إِلَى الشُّمَالِ.

وَرَأَى زُعَمَاءُ الْمُتَحَارِبِينَ أَنْ يَتَحَدَّثَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضِ قُبَيْلِ الرَّحْفِ. وَدَارَتْ بَيْنَ «أَنْطُنْيُوسِ» وَ«كَسْيَاسِ» مُلَاحَاةٌ (مُشَاتِمَةٌ) صَاحِبَةٌ، ثُمَّ قَالَ «أَنْطُنْيُوسُ»: «لَيْسَ لَنَا بُدٌّ مِنَ التَّنْكِيلِ بِكُمْ، بَعْدَ أَنْ عَدَرْتُمْ بـ«قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ، وَقَتَلْتُمُوهُ غِيْلَةً (مَنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي). وَقَدْ كُنْتُمْ — فِي حَيَاتِهِ — تَرْجُفُونَ (تَضْطَرِبُونَ)، وَتَقْبَلُونَ مَوَاطِيءَ نِعَالِهِ، وَلَا تَأَلَوْنَ جُهْدًا فِي تَمْلِيْقِهِ وَالتَّرْلُفِ إِلَيْهِ.»

فَأَجَابَهُ «كَسْيَاسُ»: «لَوْ أَنَّ «بُرُوسَسَ» أَخَذَ بِرَأْيِي فِي قَتْلِكَ — بَعْدَ أَنْ أَهْلَكْنَا «قَيْصَرَ» — لَأَسْكَنْتَنَا لِسَانَكَ السَّلِيْطَ (الطَّوِيلَ)، وَارْتَحْنَا مِنْ مَبَاهَاتِكَ الْجَوْفَاءِ (الْفَارِعَةِ). عَلَى أَنَّ السَّيْفَ كَفَيْلٌ بِالْقَضَاءِ بَيْنَنَا جَمِيعًا، وَهُوَ قَاضٍ عَادِلٌ، لَا يَرُدُّ لَهُ حُكْمٌ، وَلَا يُنْقِضُ لَهُ أَمْرٌ.»

(٢) هَزِيمَةٌ «أُكْتَفِيُوسُ»

وَطَالَ الْحَوَارُ بَيْنَ الْمُتَنَاطِرَيْنِ؛ فَاْمْتَشَقُوا سُيُوفَهُمْ (شَهْرُوهَا). وَالتَقَتِ الْجِيُوشُ، وَاسْتَبَسَلَ جُنُودُ الْفَرِيقَيْنِ، وَالتَحَمَّ جَيْشُ «بُرُوتَسَ» بِجَيْشِ «أُكْتَفِيُوسَ» فِي مِيدَانٍ، وَالتَقَى جَيْشُ «أَنْطُونِيُوسَ» بِجَيْشِ «كَسْيَاسَ» فِي مِيدَانٍ آخَرَ.

وَكَانَتِ الْقُوَى مُتَكَافِئَةً — فِي أَوَّلِ الْمُعْرَكَةِ — وَالنَّصْرُ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ. ثُمَّ رَجَحَتْ — فِي مِيزَانِ الْقِتَالِ — كِفَّةُ «بُرُوتَسَ» عَلَى حَصْمِهِ «أُكْتَفِيُوسَ»، وَأَجْلَاهُ عَنْ مَوْفِعِهِ، وَانْتَصَرَ عَلَيْهِ انْتِصَارًا بَاهِرًا.

(٣) مَصْرَعٌ «كَسْيَاسَ»

وَقَدْ كَانَ أَحَجَى بِهِ أَنْ يَصْرِفَ جُهُودَهُ إِلَى مُهَاجِمَةِ «أَنْطُونِيُوسَ»، بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ عَلَى عَدُوِّهِ. وَلَكِنَّ «بُرُوتَسَ» لَمْ يَفْعَلْ، وَأَبَى إِلَّا أَنْ يُنْكَلَ بِحَصْمِهِ، وَيَحْرِقَ خِيَامَهُ، وَيَحْرَبَ سُرَادِقَاتِهِ، وَيَمْرُقَ أَعْلَامَهُ وَرِيَائَتِهِ.

وَظَنَرَ «كَسْيَاسَ»، فَرَأَى النَّارَ تَشْتَعِلُ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، فَلَمْ يَدْرِ مَكَانَهَا، عَلَى التَّحْقِيقِ. وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ حَصْمُهُ «أَنْطُونِيُوسَ» قَدْ أَشْعَلَ النَّارَ فِي خِيَامِهِ — بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ — فَأَرْسَلَ قَائِدَهُ «تِيتِيُوسَ»، لِيَتَعَرَّفَ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ. وَمَا ذَهَبَ «تِيتِيُوسُ» حَتَّى قَدِمَ خَادِمٌ «كَسْيَاسَ» عَابِسَ الْوَجْهِ، كَالِحِ اللَّوْنِ: فَأَخْبَرَ سَيِّدَهُ أَنَّ «أَنْطُونِيُوسَ» قَدْ تَمَّ لَهُ النَّصْرُ عَلَى جَيْشِهِ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَأْسِرَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

فَاشْتَدَّ جَزَعُ «كَسْيَاسَ»، وَحَسِبَ خَادِمَهُ مُتَنَبِّئًا مِمَّا فَاهَ (نَطَقَ) بِهِ؛ فَقَالَ لَهُ: «هَآكَ سَيْفِي — يَا غُلَامُ — فَأَقْتُلْنِي بِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْفَرَ بِي «أَنْطُونِيُوسَ»؛ فَإِنَّ الْجَمَامَ (الْمَوْتَ) خَيْرٌ — عِنْدِي — مِنَ الْوُفُوعِ فِي أَسْرِ الْعَدُوِّ». وَلَمْ يَكُنْ «بِنْدَارُوسَ» يَلْبِي أَمْرَ سَيِّدِهِ مُضْطَرًّا، حَتَّى قَدِمَ الْقَائِدُ «تِيتِيُوسُ» يَحْمِلُ أَنْبَاءَ النَّصْرِ، لِيُزْفَهَا إِلَى «كَسْيَاسَ». وَلَا تَسَلْ عَنْ جَزَعِ الْقَائِدِ حِينَ رَأَى مَصْرَعَ صَاحِبِهِ، فَقَدْ بَلَغَ حَدًّا لَا يُوصَفُ.

(٤) مَصْرَعُ «بُرُونَس»

وَلَمْ يَكَدْ «بُرُونَس» يَتَعَرَّفُ هَذَا النَّبَأَ الْهَائِلَ، حَتَّى دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ، وَصَافَتْ عَلَيْهِ السُّبُلُ،
وَأَيَّقَنَّ أَنْ رُوْحَ «قَيْصَرَ» الْعَظِيمِ قَدْ انْتَصَرَتْ عَلَيْهِمْ بِقُوَّتِهَا بَعْدَ مَوْتِهِ. وَسَمِعَ جُنْدُهُ
يَتَوَاصُونَ بِالْفِرَارِ؛ فَتَحَطَّمَتْ أَمَالُهُ، وَشَعَرَ بِعَجْزِهِ عَنِ مُقَاوَمَةِ أَعْدَائِهِ، وَرَأَى خِذْلَانَهُ؛ فَلَمْ
يَجِدْ غَيْرَ الْمَوْتِ مُنْقِذًا مِنَ الْوَرِطَةِ، وَمُخْلَصًا مِنَ الْمَأْزِقِ.

وَرَأَى «أَنْطُنْيُوسَ» وَصَاحِبَهُ «أَكْتَفْيُوسَ» يَقْتَرِبَانِ مِنْهُ، فَقَالَ: «الآنَ لَا خَيْرَ لِي فِي
الْحَيَاةِ. فَوَدَاعًا أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ، فَإِنِّي قَاتِلُ نَفْسِي بِالسَّيْفِ الَّذِي أَعْمَدْتُهُ فِي صَدْرِ «قَيْصَرَ»!

«...»

ثُمَّ قَالَ: «لِتَهْدَأْ رُوْحَكَ السَّاخِطَةَ — يَا «قَيْصَرُ» — فَإِنِّي مُنْتَقِمٌ لَكَ مِنْ نَفْسِي!»
وَمَا أَتَمَّ آخِرَ كَلِمَةٍ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، حَتَّى سَدَدَ سَيْفُهُ إِلَى قَلْبِهِ؛ فَحَرَ صَرِيحًا عَلَى
الْأَرْضِ، وَفَاضَتْ رُوْحُهُ.

(٥) مَرْثِيَّةُ «أَنْطُنْيُوسَ»

وَلَمَّا قَدِمَ «أَنْطُنْيُوسُ» وَ«أَكْتَفْيُوسُ» رَأْيَاهُ جُبَّةً هَامِدَةً؛ فَجَزَعَا لِمَصْرَعِهِ، وَأَضْنَاهُمَا الْحُزْنَ
وَالْكَمَدَ.

وَرثَاهُ «أَنْطُنْيُوسُ» قَائِلًا: «لَقَدْ كُنْتُ أَنْبَلَ رُومَانِيٍّ، وَيَعْلَمُ اللهُ أَنَّكَ مَا قَتَلْتَ «قَيْصَرَ»
عَنْ حَقْدٍ وَكَرَاهِيَةٍ وَجُحُودٍ (إِنْكَارٍ لِلْفَضْلِ)، وَلَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ الدُّنْيَا (الْفَعْلَةَ الْحَقِيرَةَ)، وَلَمْ
تَكُنْ فِي سَمَائِكَ (أَخْلَاقِكَ) غَادِرًا وَلَا حَاسِدًا، وَلَكِنَّ «كَسْيَاسَ» الْأَيْمِ هُوَ الَّذِي زَيَّنَ لَكَ
هَذِهِ الْفَعْلَةَ الشَّنْعَاءَ، وَأَدْخَلَ فِي رُوعِكَ (قَلْبِكَ)، أَنَّ مَصْلَحَةَ بِلَادِكَ، وَخَيْرَ وَطَنِكَ، يُحْتَمَانِ
عَلَيْكَ اغْتِيَالِ «قَيْصَرَ»؛ فَأَوْدَى (مَاتَ) مَبْكِيًّا، وَأَوْدَيْتَ مَأْسُوفًا عَلَيَّ!»



ثُمَّ خَتَمَ رِثَاءَهُ النَّبِيغَ قَائِلًا:

وَأَبْرَّ مَنْ عَادَى، وَأَكْرَمَ مَنْ مَجَدُّ
بَغِيًّا، وَقَدْ أَضْنَى قُلُوبَهُمُ الْكَمَدُ
قَدْ سَجَلَتْ — بِجُودِهَا — عَارَ الْأَبْدُ
إِنَّا عَرَفْنَا نُبْلَهُ فِيمَا قَصَدُ
ذَابَتْ قُلُوبُهُمْ، وَأَشَقَّاهَا الْحَسَدُ
حَيًّا، وَحَيُّوا جِسْمَهُ لَمَّا هَمَدُ
سَطْرًا، إِذَا مُجِيتَ صَحَائِفُنَا خَلْدُ
عَرَفَ الدِّنْيَةَ — فِي شَمَائِلِهِ — أَحَدُ
وَأَجَلُ ذِي فَضْلِ تَسَامَى وَأَنْفَرَدُ.»

«إِنْ يَخْدَعِ الْأَشْرَارُ أَنْبَلَ مَنْ وَفَى،
أَوْ يَقْتُلِ الْأَشْرَارُ «قَيْصَرَ رُومَةَ»
فَعِصَابَةُ الشَّيْطَانِ الْأُمِّ عُصْبَةُ
إِلَّا «بُرُوتَسَ» وَحَدَهُ — مَنْ بَيْنَهُمْ —
كَانُوا جَمِيعًا — مَا خَلَاهُ — حَسَدًا،
حَيُّوا «بُرُوتَسَ»، وَاهْتَفُوا بِخَلَالِهِ
فَلَيُنْبِتَنَّ الدَّهْرُ — مِنْ آيَاتِهِ —
وَيَقُولُ: كَانَ «بُرُوتَسُ» رَجُلًا، وَمَا
وَيَقُولُ: أَوْدَى فَخْرُ «رُومَةَ» كُلِّهَا